مسرحیات شکسپیر

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - القاهرة

العبرة بالخواتيم

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

العبرة بالخواتيم

ترجمة وتقديم

عباس حافظ

مراجعة

شفيق غربال - محمد بدران

موضوع القصة
ومن أين اقتبسها شكسبير

استقى شكسبير موضوع هذه القصة من الأديب الإيطالى بوكاشيو ، الذى ألف قصة «ديكاميرون» وأجراها على نسق كتاب «ألف ليلة وليلة» وجعلها نوادر تقص تباعاً يوم بعد آخر ، وفى اليوم الثالث يحكى المؤلف القصة التاسعة وتكاد فى جملتها وجوهرها تماثل مسرحية شكسبير.

وقد اقتبسها الشاعر من ترجمة ليوكاشيو أصدرها «وليم بينتر» فى عام ١٥٦٦ ، مع قصص أخرى ، جعل عنوانها «قصر اللذات».

وفيما يلى خلاصة القصة كما كتبها بوكاشيو :

كان «إيزناردو» كونت روسيليون ، أحد أشراف فرنسا ، رجلاً اصطلحت العلل عليه فدعا إليه طبيباً يدعى «جيرادودى ناربونا» ليلازمه ويشرف على تطبيبه ، وكان له ولد لم ينجب سواه ، فنشأ الغلام وترعرع بجانب ابنة الطبيب وهى «جيليتا» ، فأحبته الصبية ولكنها لم تكاشفه ، بل كتمت حبها فى صدرها إذ أدركت الفارق الاجتماعى الكبير بينها وبين الأمير الصغير.

وقضى الكونت نحبه ، فأصبح ابنه فى رعاية ملك فرنسا ، بحكم التقاليد ، إذ كان أبناء الأشراف حين يموت آباؤهم ، وهم بعد فى سن الحداثة ، أو مطالع الصبا ، يوضعون فى حماية الملك ورعايته ، فانتقل الفتى إلى باريس

ليقيم فى البلاط ، ولم تستطع «جيليتا» أن تتبعه ، ولكنها علمت أن الملك يشكو من «خراج» أليم فى الصدر عجز الأطباء عن إبرائه منه ، فانتوت الفتاة الاستعانة بوصفه دواء كان أبوها قد تركها من بعده ، على علاج الملك من علته ، فسافرت إلى باريس ، وتمكنت من المثول بين يديه ، وإقناعه بتجربة دوائها فإذا برئ من المرض ، كافأها ، على جهدها ، وقد اشترطت أن يأذن لها فى اختيار زوج لها من بين الأمراء الشباب فى حاشيته ، فرضى الملك ووعدها إذا برئ من علته أن يكون لها ما طلبت .

وقد شفى الملك حقًّا ، وبر الملك بوعده ، فدعا إليه الشباب ، واختارت «جيليتا» فتاها من بينهم ، فغضب «بلترامو» – الكونت الصغير – واستعفى ، ولكن الملك أصر على أن تكون له زوجاً ، فلم يجسر على مخالفة أمره .

ولم يكد يتم الاحتفال بالقران ، حتى لاذ الشاب بالفرار إلى «تسكانيا» ليحارب فى صف دوق فلورنسا ، وكان فى قتال حيال أهل مدينة إيطالية أخرى تدعى «سينا» ، بينما رجعت جيليتا إلى قصر «روسيليون» حيث استقبلت استقبال «الكونتة» الصغيرة ، وعكفت على إدارة ضياع زوجها بحكمة بالغة حتى ظفرت بقلوب الزراع ، واكتسبت إعجابهم وبعثت برسولين إلى «بلترامو» ترجو إليه أن يعود ، فرد عليها مع الرسولين قائلاً : «لتفعل ما تشاء لأنى لن أعاشرها حتى تلبس هذا الخاتم فى إصبعها ، وتحمل بين ذراعيها ولداً تلده منى . . » .

واشتد بها الأسى حين عرفت هذين الشرطين واعتزمت أن تقضى بقية العمر بتولا ناسكة ، ثم تزيت بزى الحجاج ، وشخصت إلى فلورنسا ، حيث عرفت

أن «بلترامو» يحب فتاة فقيرة ولكنها طاهرة الجيب عفة ، وتقيم مع أمها فى المدينة ، فذهبت إليهما وقصت عليهما القصص ووعدت الفتاة مهراً سخيًّا إذا هى وأمها قبلتا ما هى عارضة عليهما قائلة : «أريد أن توفدا رسولاً موثوقاً به إلى الكونت لينبئه أن الفتاة تحت أمره ، وأنها لكى تستوثق من أنه يحبها دون سواها ترجو أن يرسل إليها خاتماً لتلبسه فى إصبعها ، وهو خاتم سمعت بأنه شديد الاعتزاز به ، فإذا أرسله إليها ، أخذته أنا منها ، وتتولى هى إرسال كتاب إليه تقول فيه إنها لا تتردد فى النزول على مشيئته ، وتعين له فى فخمة الليل موعداً للخلوة بها ، فإذا جاء حللت أنا محلها ، ومن يدرى لعل الله مقبض لى ولداً منه ، فيتم ما اشترطه ، وهو الخاتم فى إصبعى ، والولد بين ذراعى ، ولعلى بهذا مستردة زوجى بفضلكما . .»

ولكن والدة الفتاة ترددت فى بداية الأمر متكرهة ، ثم ما لبثت أن أقبلت الفكرة ، وحقق الله للزوجة المقصية سؤالها ، فولدت منه ولدين ، وتكررت الخلوات على الأيام وهو فى كل مرة لا يدرى أنها زوجه ، بل يحسبها المرأة التى أحبها .

وعلم الكونت «بلترامو» أن زوجه قد غادرت قصر أبويه فعاد إليه ، فى حين لبثت «جيليتا» مقيمة فى فلورنسا حتى وضعت «توأميها» ، فعادت وهى لا تزال فى زى الحجيج إلى القصر فى وقت كان الكونت يقيم فيه وليمة كبيرة فدخلت إلى البهو ، وتقدمت نحوه ، فجثت عند قدميه وشرحت له كيف نفذت شرطيه وانثنت قائلة ، والآن فلترتضينى لك زوجاً إن كنت لوعدك منجزاً . .

وروت له ما جرى ، فبهت ، مما سمع ، وتأثر بما علم ، وأقبل عليها معانقاً راضياً .

وقد ختم بوكاشيو القصة بهذه الكلمات :

ومن ذلك اليوم أحبها وكرمها تكريم زوج لزوجة عزيزة وفية . . »

براعة شكسبير
فى صياغة القصة والزيادة عليها

ويقول الثقات إن القصة ، كما بدت فى ترجمة «وليم بيتر» لم تكن بارعة فى التأدية ، ولا رائعة من حيث الأسلوب ، ولكن شكسبير التزم حوادثها من حيث هى ، ومضى يتوسع فى مشاهدها ، ويدخل عليها أشخاصاً من براعة ابتكاره ، وحسن تأديته ، وجمال شعره ، وروعة حكمته ، كشخصية «الكونتة» أم برترام ، والأمير الشيخ «لافيه» الثرثار ، و«لاهاش» المضحك المهذار ، و«بارولس» الجبان الكذاب ، فكانت هذه الزيادات التى «طعم» بها شكسبير القصة ، تطعيم البستانى الثمار والعيدان والأزهار ، أحلى شخصياتها ، وأعذب مشاهدها ، وأبدع أجزائها المليئة بالحكمة والكلمات الجوامع التى ذهبت مذهب الأمثال .

وقد وضع الشاعر هذه القصة ، فيما يقول الرواة ، خلال الفترة بين عامى ١٩٥٨ و ١٦٠٨ ، وهى الفترة التى دخلت فيها عبقريته دور النضوج ، وأخرج خلالها طائفة من خيرة رواياته ، وروائع آياته ، وأكبر الظن أنه كان يريد بها أن

تكون أختاً لقصة «خاب معى العشاق» حتى لقد سماها فى بداية الأمر «أفلح معى العشاق». وإن كانت هذه أرفع من تلك إنتاجاً، وأسمى مرتبة، ولا يدرى أحد ما الذى حمله فيما بعد على تغيير عنوانها، وإن كان المرجح أنه وجد فى عنوانها الحالى مثلاً سائرًا فى أيامه، فاعتقد أنه أرعى للأنظار. وأجلب للشهرة فاختاره.

وقد رأيناه يجعل المحور الجدى فى هذه الرواية «الفكهة» يدور حول «هيلين» التى كرهها زوجها من ساعة قرانه بها، ترفعاً عنها، وتساميًا بمكانه الرفيع عن مكانتها، فاحتملت مرارة الخيبة، وما زالت بلطف حيلتها، وفضل ذكائها وفطنتها، حتى استعادته فى النهاية، فكانت العبرة بالخواتيم كما آثرنا أن ندعو القصة بهذا العنوان.

وقد أراد شكسبير فى تصويره لشخصية هيلين على هذا النحو أن يدلل على أن حب المرأة وصبرها ينتصران فى النهاية على سوء استغلال الرجل لقوته وسلطانه، وإن شهدنا قصصاً أخرى لإعداد لها، تذهب غير هذا المذهب، فتصور المرأة فى صورة الماكرة، الخداعة، الخلية من الثبات والصبر والوفاء.

وكان خيراً لشكسبير أن ينسب ذلك الحوار الطويل الذى دار بين «بارولس» فى الفصل الأول وبين هيلين عن «العذرة» واستمساك العذارى بعفافهن، وترددهن فى أمر الزواج، إلى شخصية أخرى غير ذلك «الماجن» الكذوب الدعى، ولكنه مع هذا ضمنه كلاماً بديعاً، ومجوناً بارعاً، وفلسفة فكهة، ترضى السامعين والقارئين، وإن رأى بعض النقاد أنه كان أولى بحذف المشهد من الرواية بجملته.

أما شخصية الأم – وهى الكونتة العجوز – فقد أجاد الشاعر فى رسمها أبلغ الإجادة ، وقد رأيناه فى أكثر من قصة يضفى على الأمهات وأمثالهن لوناً من الوقار يأخذ بالألباب ولا يجعل الفتنة والإعجاب ، وقفاً على الغوانى والشواب الحسان ، وإن نصائح هذه الأم الرءوم لابنها قبل انتقاله إلى البلاط لهى على إيجازها أدنى من حيث الحكمة والروعة إلى حديث الحكيم بولونيوس مع «لايرت» فى قصة «هملت» .

ويبدو الملك فى روايتنا هذه مع مرضه فيلسوفاً ، صادق النظرة ، فإن الحوار الذى دار بينه وبين الشاب «برترام» بسبيل اعتزازه برفعة المنبت ، وعراقة المحتد ، قطعة ملأى بالقوة وأصالة الرأى .

أما شخصية «بارولس» فهى صورة فذة منقطعة النظير ، فقد صوره الشاعر ، رقيعاً ، كذاباً ، رعديداً ، مُدعياً ما ليس فيه ، حتى ليستثير منا الرثاء له حين يفتضح أمره ، وتنكشف خليقته ، على فرط هذه المعايب التى تجتمع فيه ، وتنتزع منا الضحك والسخرية منه ، وحين يصفه الأمير الشيخ الماجن «لافيه» بقوله : «لا يمكن أن تكون فى هذه البندقة حبة ، فإن كل روحه هى ثيابه» .

ولسنا ننسى شخصية «المهذار» فى هذه القصة ، فهو ناحية بمفردها من نواحيها الفكهة ، ولا سيما حين يقول : «إن لديه جواباً يصلح لكل الأسئلة» ، وحين يتطلق فى نكاته البارعة ، وتورياته المتقنة ، ومجونه البديع .

وعند تقدير مفاتن هذه المسرحية ، لا يصح أن نغفل الإشارة إلى ذلك المشهد الفاتن الذى يخلو فيه الشاب النبيل «برترام» بالفتاة «ديانا» لإغرائها

بالاستجابة إلى غزله ،والاستماع إلى نداء شهوته ، ولا نحسب ثمة مقالاً فى طهارة العذارى ، والحرص على العرض ، والحفاظ ، أروع ولا أبلغ من مقالها وهى تحاجه ، وتأبى مطاوعة رغبته ، ولا نعتقد أن هناك نصيحة إلى الفتيات الحسان ، والعذارى المليحات ، أسدى ولا أحجى مما جرى على شفتيها ، حتى ليتجاوز فى جلاله كل ما كتبه الفلاسفة ، أو قاله الحكماء .

لقد كان شكسبير فى جملة رواياته «معلم أخلاق» ، فمن قرأه بغير نظر إلى هذه المزية فيه ، لم ينتفع به ، وفاته «المفتاح» الذى يفتح له الطريق إلى مغاليق هذه الحكمة المستترة فى هزله ودعابته .

وقد لا تخلو هذه القصص الروائع من عبارات «مكشوفة» أو أفكار جافية ولكن لا يستطيع أحد أن يعثر خلالهن على «مبادئ» خاطئة ، أو نظرات تصطدم بكرائم الأخلاق . . »

عباس حافظ

شخصيات المسرحية

ملك فرنسا

دوق فلورنسا

برترام كونت رسيون

لافيه : لورد متقدم فى السن

بارولس : تابع لبرترام

رئيس الخدم فى قصر الكونتسة روسيون

مهرج :

١ – السيد ج . ديمان

٢ – السيد ب . ديمان

وصيف

الكونتسة روسيون : أم برترام

هيلين : فتاة فى رعاية الكونتسة

أرملة عجوز : فلورنسا

ديانا : ابنتها

فيولنتا وماريانا : من جيران الأرملة وصديقاتها

الفصل الأول

المشهد الأول

روسيون – حجرة فى قصر الكونتسة

(يدخل برترام– والكونتسة روسيون. وهيلين. ولافيه. وهم جميعاً فى لباب الحدود)

الكونتسة : إننى بانتزاع ولدى منى – أدفن زوجاً ثانياً .

برترام : وأنا يا سيدتى بذهابى أبكى أبى مرة أخرى ، ولكن يجب أن أمتثل لأمر جلالته لأننى الآن تحت وصايته . بل أكثر من ذلك فى خضوع لمشيئته[1] .

لافيه : ستجدين فى الملك يا سيدتى زوجاً ، وأنت يا سيدى واجد فيه أباً . فمن كان مثله خيراً مكرماً للناس أبداً ، لابد مظهر فضله نحوك ، مكرم بالضرورة لك ، وكونك العلا لهذا يدعو إلى تكريمك حتى من كان من الفضل خليًّا ، فكيف وهو كثير الأفضال ، موفور المحامد والخلال .

الكونتسة : وهل من أمل فى برء جلالته . .

---

(١) كان كل «قاصر» من أبناء الأشراف يوضع تحت رعاية الملك ، فهو الوصى عليه وقد توفى الكونت روسيون من عهد قريب ، فأصبح غلامه برترام تحت وصاية الملك .

لافيه : لقد يئس أطباؤه يا سيدتى ، بعد أن بدد بالأمل الزمان ، تحت علاجهم ، ولم يجد منه نفعاً ، غير فقدان الأمل على الأيام[٢] .

الكونتسة : لقد «كان» لهذه السيدة أب – أواه ، من كلمة «كان» هذه . ما أقسى ذلك الحادث ، وكانت براعة طبه تكاد فى عظمتها تبلغ مبلغ صدقه ونزاهته ، ولو امتد الأجل بها إلى أيامنا ، لجعلت الطبيعة البشرية متأبية على الفناء ، ولذهب الموت يرتع ويلعب ، لتبطله من العمل وفراغه ، ليته من أجل الملك كان حيًّا ! ولو كان لكان فى حياته فى أغلب ظنى ، موت مرض الملك وهلك علته .

لافيه : وماذا كان اسم الرجل الذى تتحدثين عنه يا سيدتى . .

الكونتسة : لقد كان علماً يا سيدى فى مهنته ، وله الحق كل الحق فى أن ينال ما نال من الشهرة ، لقد كان يدعى «جيرار دى ناريون» .

لافيه : لقد كان فى الحق رجلاً ممتازاً ، وقد ذكره الملك من عهد قريب بإعجاب به ، وأسى عليه ، ولو استطاع العلم أن يغالب الموت ، لكانت براعته كافية لأن يبقى حيًّا أبد الدهر .

برترام : ومم يشكو الملك وتذوى صحته يا سيدى الكريم . .

---

(٢) أى أنه لم يعد يرجو عند الأطباء برءاً ، بعد أن عذب نفسه بالأمل ، وجاء طول الانتظار مع الزمن فأفقده الأمل فى الشفاء .

لافيه : وددت أنك لم تسمع به الآن أو تعرفه ، هذه السيدة ابنة جيرار دى ناريون .

الكونتسة : وحيدته يا سيدى ، وقد عهد بها إلى عنايتى ، وأن تربيتها لتبشر بالخير الذى أرجوه لها ، إن الميول والمنازع التى ورثتها لتجعل مواهبها الجميلة أكثر جمالاً وبهاءً ، وتبدى السجايا الحسان أشد حسناً ورواءً ، وحيث يحمل العقل الخلى من النقاء ، فضائل وحسن خلال ، تكن المدائح أسفاً لها ورثاءً ، وهى فى هذه الحالق تكون فضائل ، وسجايا حسنة ، وهى أيضاً غوادر وخونة ، أما عندها ، فإن بساطة فضائلها ، تزيدها فضلاً ، لقد ورثت الوفاء ، واكتسبت بنفسها الطيبة .

لافيه : إن مديحك يا سيدتى يسيل دموعها .

الكونتسة : إن الدموع لهى خير ملح « تتبل » به العذراء المديح الموجه إليها ، إن ذكرى أبيها لا تكاد تقترب من قلبها ، حتى تستبد بها الأحزان فتنزع كل سمات الحياة من خديها . حسبك يا هيلين وكفى دمعاً ، لئلا يظن أنك تتصنعين الحزن تصنعاً ، لا أنك .

هيلين : إنى ، حقًّا ، أظهر الحزن ولكننى أكنه أيضاً .

لافيه : إن الحزن المعتدل حق للموتى ، ولكن الأسى المفرط عدو للأحياء .

الكونتسة : وإذا كان الإحياء للحزن أعداءً ، فإن الإفراط فيه لا يلبث أن يودى بالحياة .

برترام : سيدتى ، أتمنى دعواتك الطاهرة .

لافيه : كيف نفهم هذا[٣] .

الكونتسة : بوركت يابرترام ، ولتخلف أباك خلقٌ وفضلاً ، كما خلفته صورة وشكلاً ، إن الدم الذى يجرى فى أعراقك ، والفضيلة التى تزين أخلاقك ، تتنازعان السلطان عليك ، وطيبتك تتفق مع ما ورثته بمولدك ، أحبب الجميع ، ولا تثق إلا بالقليل ، ولا تظلم أحداً . . ولتكن لك مثل قدرة عدوك ، ولكن اجعل قدرتك عليه بأساً وسلطاناً ، ولا تستخدمها فى إيذائه ، وصن صديقك واحرص عليه ، بقفل حياتك ومفتاحها ، ولأن تعاب على الصمت ، خير لك من أن تعاب على الكلام ، وليكن لك ما تشاء السماء من زيادة فى الفضل ، وما فى دعواتى من قطوف الأمل ، وداعاً يا سيدى ، إنه سيكون فى بلاط الملك غير مجرب فكن له ناصحاً .

لافيه : لن يعوزه خير ما يسديه الحب من نصح .

الكونتسة : ليباركه الله . . وداعاً يا برترام .

(تخرج الكونتسة)

---

(٣) يشير هذا إلى حديث هيليان ولعله كان أفضل أن يأتى بعده مباشرة.

برترام : (لهيلين) لتكن أطيب ما فى خاطرك من أمانى ، سعاة فى خدمتك أرعى أمى مولاتك ، وزيديها منك ولاءً .

لافيه : وداعاً أيتها الغادة الحسناء ، وصونى لأبيك الفضل وحسن الثناء

(يخرجان)

هيلين : (وحدها) لو كان هذا كل ما هنالك لما فكرت فى أبى ، وإن هذه العبرات الغزار لتزيد ذكراه جلالاً ، أكثر مما ذرفت من قبل من عبرات ، ترى كيف كان سمته ؟ وكيف كانت صورته ، لست أدرى فقد نسيته ، ولم يعد فى خيالى شىء من ملامحه ، بل كل ما بقى فيه هو صورة برترام . . الويل ويلى ، لا حياة لى ، وبرترام بعيد عنى ، إن حبى إياه كمحى نجماً متلألئاً ، إن علىّ أن أقنع بمشهد سنائه وخاطف ضيائه ، دون المقام فى أفقه والعيش فى نوره الساطع ، إن ما فى حبى من طموح لهو سبب ما ألاقيه فى هذا الحب من بلاء ، فالغزالة التى تطمع أن تقترن بالليث ، يقتلها حتماً هذا الحب ، وكان جميلاً ، وإن بدا أليماً ، أن أشهده فى كل ساعة ، وأن أجلس فأنقش حاجبيه المقوسين وعينه الحديدة ، كعين الصقر ، وغدائره ، على صفحة الفكر ، ولوح القلب ، ذلك القلب القدير على تصوير كل معالم محياه ، ورسم كل فتنة من عذوبة حسنه ، وها هو ذا الآن قد ذهب ، وعن

العين احتجب ، فليقدس خيالى الوثنى العابد ، وخاطرى الراكع الساجد ، صوره وآثاره ، أشد التقديس . . . من هذا القادم ؟

(يدخل بارولس)

(لنفسها) أحد الذين سيرافقونه ، إننى أحبه لأجل خاطره ، وإن كنت أعرفه كذاباً مشهوراً بكذبه ، وأحسبه مهذاراً إلى حد كبير ، وجباناً من كل نواحيه ، وإن كانت هذه المساوئ هى جزء من كيانه ، حتى لتبدو طبيعية فيه ، وعلى حين يبدو التزمت فى الفضيلة رياءً ونفاقاً ، وكثيراً ما نشهد العاقل الرقيق الحال فى خدمة الأحمق الظاهر الحماقة .

بارولس : سلام لك أيتها الملكة الحسناء .

هيلين : سلام عليك أيها الملك[٤] .

بارولس : لا . .

هيلين : ولا مثلها

بارولس : هل تعتزمين أن تبقى عذراء بلا زواج .

هيلين : أجل – إن فيك شيئاً من صبغة الجندى ولونه ، فدعنى أسألك إن الرجل عدو للعذرة ، فكيف نحصنها من شره .

---

(٤) يذهب أحد الشراح إلى أن مناداتها له «بالملك» بعد قوله لها «أيتها الملكة» هى إشارة إلى «مونارکو» وهو إيطالى مخبول كان فى حاشية الملكة إليزابث ليسليها ويضحكها بجنون العظمة الذى كان مريضاً به .

بارولس : بإبعاده .

هيلين : ولكنه أبداً مهاجم . وعذرتنا على شجاعتها ، ضعيفة فى الدفاع عن ذاتها ، فهلا كشفت لنا عن شىء من وسائل المقاومة القوية .

بارولس : ليس ثمة وسائل ، إن الرجل منا ليرابط قبالتكن ، فيقوض كيانكن وينسفكن نسفاً .

هيلين : حمى الله عذرتنا المسكينة من المقوضين والناسفين ، أليس ثمة سياسة حربية مرسومة ، تمكن العذارى من نسف الرجال .

بارولس : لا تكاد العذرة تهوى حين ينسف الرجل حطاماً ، إن الاحتفاظ بالعذرة ليس من سياسة الطبيعة ولا صالحها ، إن فقدانها ربح معقول ، وزيادة حكيمة ، وما من عذراء تُوَلَّد ، إلا بعد أن تضيع العذرة أولاً وتفقدها ، إنكن قد صنعتن من معدن يصنع بذاته العذارى ، فإن فقدت العذرة مرة ، فقد تسترد عشر مرات ، والحرص عليها مضيعة لها ، إنها لرفيق بارد ، فلنتخل عنها .

هيلين : سأحرص «قليلاً» عليها ، وإن مت عذراء .

بارولس : لا يكاد يوجد ما يقال فى الدفاع عنها ، إنها ضد ناموس الطبيعة وشريعتها ، إن امتداح العذرة هو اتهام منكن لأمهاتكن ، وهو عقوق لا ريب فيه ، إن العذراء التى تأبى الزواج هى كالرجل الذى يشنق نفسه ، ذلك أن العذرة تقتل

نفسها ، وأولى بها أن تدفن فى الطرق العامة بعيدة عن كل مكان مقدس(٥) لأنها أجرمت إجراماً شديداً فى حق الطبيعة ، إن العذرة دود فى ذاتها ، أشبه ما تكون بالجبن ، وتأكل نفسها حتى القشرة ، وهكذا تموت مالئة بطنها من غذاء لحمها وطعام جسمها ، والعذرة إلى جانب ذلك كله شرسة ، متعجرفة ، متبطلة ، صنعت من الأثرة وهى أشد الذنوب فى الشريعة تحريماً ، فلا تمسكيها عليك ، لأنك حتماً بها خاسرة ، اخرجى منها تجديها بعد سنة واحدة قد ضاعفت نفسها ضعفين ، وهى زيادة كريمة ، ولن تكون يومئذ أسوأ حالاً مما هى . . تخلى عنها .

هيلين : وكيف تفعل العذراء يا سيدى لكى تفقدها كما تحب ؟

بارولس : دعينى أفكر ، فى الحق أن من الشر أن ترضى بمن لا تحب ، إن العذرة سلعة تفقد بريق جدتها بطول البقاء ، وكلما طال أمد الاحتفاظ بها ، قل قدرها ، وبخس ثمنها ، هلمى تخلصى منها وهى لا تزال قابلة للبيع . أجيبى الطلب فى وقته ، ولى السؤال فى حينه ، إن العذرة كرجل الحاشية المسن ، ترتدى قبعة من طراز انتهى زمانه ، وقدم حينه ، ولئن صنعت من قماش جيد ، فإنها مع ذلك غير مناسبة لزمانها ، كمشبك

---

(٥) كانت العادة ألا يدفن المنتحرون فى المقابر العامة لأنهم اقترفوا جرماً فى حق الحياة ، وقد شرح المؤلف هذه النقطة فى الحوار بين اللحاد وزميله فى الفصل الأول من رواية «هملت» .

الصدر وفرشاة الأسنان[٦] لم يعودا يلبسان الآن ، إنه لأفضل أن تكون تمرة[٧] فى كعكتك وفطرك ، منها على خدك ، وإن عذرتك إذا طال عليها الدهر لأشبه بالكمثرى الفرنسية الذابلة ، تبدو فى الشكل القبيح ، وفى المذاق ممجوجة ، وهى فى الحق كمثرى ذاوية عفنة ، وكانت فيما مضى خيراً مما هى ، ولكنها فى الحق كمثرى ذاوية ، فماذا تصنعين بها ؟

هيلين : ولكن عذرتى لم تبلغ هذا الحد بعد ، إنك لذاهب إلى بلاط[٨] الملك حيث مولاك وأجد ألف حب ، أمًّا ، وخليلة وصديقاً ، وعنقاء وقبطاناً ، وعدوًّا ، ومرشداً ، وربة ، وملكًا ، ومشيرًا ، وخائنة ، وغالية عزيزة ، وطموحًا ذليلاً ، وضعة متكبرة ، ووفاقاً متنافراً ، وتنافراً موافقاً ، وإيماناً ، ومرارة حلوة ، وعالماً من حسان غريرات ، ذوات أسماء مختارة ، وألقاب مصطفاة ينعم بها عليهم كيوبيد الأعمى الذى يرعاهن ويتبناهن[٩] ، والآن فلست أدرى ماذا سيفعل ،

---

(٦) كان الطراز السائد قبل أيام شكسبير أن يوضع المشبك وفرشاة الأسنان فى سلسلة فوق الصدر ثم انتهى هذا الطراز ، ومن هنا يقول إن بقاء الفتاة عذراء لا تريد الرجال هو طراز قديم انتهى عهده .

(٧) التمرة هنا من التمر أو البلح الذى يرشق فوق قطعة الفطير ولكن كلمة تمر فى الإنجليزية لها معنى آخر وهو التاريخ أو الوقت المحدد ، وهنا تورية أى لا تدعى العذرة تفوت أوانها .

(٨) المتن هنا مضطرب ، وقد فقدت منه بعض سطور تعلق فيها هيلين على سفر برترام إلى بلاط الملك حيث يجد أحباء جدداً .

(٩) أى أنه سيجد ما يلهو به وكل هذه الأشياء التى عددتها هى نعوت الذين سيختلط بهم ، =

فليحسن الله وفادته ، إن البلاط معهد للتعلم ، وهو . .

بارولس : وهو ماذا بالله . . ؟

هيلين : من أتمنى له الخير للأسف . .

بارولس : للأسف مم . .

هيلين : إن أتمنى الخير لا شيء فيه يمكن أن يحس ، وإننا معاشر المنحوسين من مولدنا ، تحتجرنا كواكب نحوسنا فى خوالج نفوسنا وأمانينا[١٠] وقد نتبع أصدقاءنا ، من تأثير كواكبنا ، ونبدى ما نحن وحدنا نفكر فيه ونراه ، فلا نجد شكراً عليه ولا عرفاناً .

(يدخل غلام)

الغلام : إن مولاى يدعوك يا سيد بارولس .

(ينصرف)

بارولس : وداعاً يا هيلين الصغيرة ، سأفكر فيك ! إذا استطعت فى البلاط أن أتذكرك .

هيلين : يا سيد بارولس ، لقد ولدت تحت كوكب سعد .

= فقد ذكرت «أمًّا» أى امرأة فى مثل سن أمه ، كما ذكرت «العنقاء» وهو فى اليونانية «الفقنقس» أى العنقاء وهو طائر خرافى ، ثم جاءت بصفة أخرى على سبيل المقابلة فى المبالغة وهى قولها طموح ذليل وضعة متكبرة ، وبالمثل ما بعدها «وفاقاً متنافراً ، وتنافراً موافقاً ، وكيوبيد الأعمى» هو إله الحب ، الأحاديث عن أهل الغرام فى البلاط .

(١٠) أى لا تملك غير التمنى .

باروليس : أنا كوكبي المريخ[١١] .

هيلين : رأيي الخاص أنه كذلك .

باروليس : ولم يكون المريخ كوكبي ؟ .

هيلين : لأن الحروب شغلتك إلى حد لا مفر معه من القول أنك ولدت تحت كوكب المريخ .

باروليس : وهو فى أوجه .

هيلين : بل أظن فى تراجعه[١٢] .

باروليس : ولماذا تظنين هذا ؟

هيلين : لأنك تتراجع كثيراً حين تحارب .

باروليس : هذا مقصود لغرض .

هيلين : وكذلك القرار حين يبشر الخوف بطلب السلامة ، ولكن شجاعتك وجبانتك اتفقتا على فضيلة خفة القدم ، وسرعة الخطى ، وإنى ليروقنى جداً هذا المظهر[١٣] .

باروليس : إن لدى من المشاغل ما يجعلنى عاجزاً عن الرد عليك بما

---

(١١) إله الحرب ، يريد أن يقول إنه ولد ليكون جنديًا .

(١٢) أراد بقوله «وهو فى أوجه» إنه جندى عظيم ، ولكنها أجابت بقولها «بل فى تراجعه» أى أنه ليس إلا جنديًا مخفقاً ، يتراجع فى القتال ويتقهقر ، وحين علل تراجعه بقوله «هذا مقصود لغرض» كما يتراجع الجيش أحياناً ليتخذ مواقع محصنة ، أو ليحرص على خط رجعته ، ذهبت إلى تعليل آخر بديع وهو الجبن وطلب الفرار فقالت إن شجاعته وجبانته اتفقتا على الجرى وسرعة الخطى .

(١٣) يبدو أن باروليس من المتأنقين ، فهى تضيف إلى قولها السابق مواساة باروليس بالحديث عن تأنقه وهندامه .

يفحمك سأتخلق بأخلاق حاشية الملوك ، وسيساعد علمى على تغيير طبعك ، فتصبحين قديرة على أن تأخذى بنصيحة للبلاطى العتيد ومشورته وتدركى ماذا تفرضه المشورة عليك ، وإلا مت فى جحودك ونكرانك ، وذهب بك جهلك ، وداعاً ، وإن وجدت فراغاً من العمل ، فاعكفى على صلاتك ، وإن لم تجدى فراغاً فاذكرى صحابك ، واظفرى لنفسك بزوج طيب وعامليه بمثل ما يعاملك ، والآن وداعاً .

(يخرج)

هيلين : إن دوائنا كثيراً ما يأتى من أنفسنا ، وإن عزوناه إلى السماء أحياناً ، إن السماء التى يقال إنها تتصرف فى أقدارنا قد أتاحت لنا المجال واسعاً حراً ، فلا تردنا عما نبغى من خطط مترابية ، إل حين تجدنا فاترين ، أى قوة هذه التى تجعلنى أحب من هو شأنه أعلى من شأنى ، وانظر ولا أمتع بمن يطالع ناظرى ، إن الطبيعة ، على بعد المسافة بين الحظوظ والأخطار ، تجمع بين الأشباه والنظائر ، حتى ليتراءوا أنداداً ، إن الفعال الجريئة لتبدو مستحيلة لمن يبالغون فى الخوف من جهدهم ، ويغالون بأخيلتهم فى حساب متاعب سعيهم ، فلا يحاولون أمراً لا يجدون أمثلة له أمام أعينهم ، ويظنون أن ما كان لا يمكن أن يكون ، ومن تلك التى تجاهد

فى إبراز مواهبها إذا كانت قد فشلت فى الظفر بحبيبها ، وقد يخدعنى مشروعى بشأن مرض الملك وعلته ولكن عزيمتى ثابتة وطيدة فلن تخذلنى .

(تخرج)

المشهد الثانى

دق طبول

(يدخل ملك فرنسا – تمسكاً برسائل فى يده ومن خلفه رجال حاشيته)

الملك : إن أهل فلورنسا ، وشعب سيينا قد عادوا إلى الشقاق والقتال وتماسكا بالآذان وكانت الحرب بينهما سجالاً ، ولا يزالان فى حرب عناد وتحد .

الشريف الأول : بهذا وردت الأنباء يا مولاى .

الملك : أجل ، إنها أنباء يرجح صدقها كل الرجحان ، وقد أكدها لنا ملك النمسا ابن عمنا ، ونبهنا إلى أن صاحب فلورنسا سيطلب إلينا عوناً عاجلاً ، ولقد سبقنا أعز أصدقائنا برأيه فى موقفنا ويبدو أنه يريد منا ألا نبعث مدداً .

الشريف الأول : إن حبه لجلالتك ، وأصالة رأيه التى ثبتت لديك يدعوان إلى الثقة به .

الملك : لقد أيد ردنا ، فضننا بالعون قبل أن يطلب إلينا ، ولكن من يريد من أشرافنا أن يشهد الحرب الناشبة فى تسكانيا فهو حر فى أن يذهب ، للاشتراك مع أى جانب من جانبيها .

الشريف الثانى : قد يكون ذلك بمثابة «معهد تدريب» لأشرافنا الذين يحنون إلى العمل وإتيان الفعال الجسام .

الملك : من القادم علينا . .

(يدخل برترام ولافيه وبارولس)

الشريف الأول : هذا هو الكونت روسيون أيها المولى الكريم ، الفتى برترام .

الملك : أيها الفتى ، إن لك وجه أبيك ، إن الطبيعة الصراح الصادقة بدقتها وأناتها ، لا تعجلها وسرعتها ، قد أحسنت صورتك وأرجو أن تكون قد ورثت خلق أبيك مع حسن صورته ، مرحباً بك فى باريس .

برترام : لك شكرى وطاعتى يا صاحب الجلالة .

الملك : ليتنى الآن سليم البدن موفور العافية كما كنت أنا وأبوك ، حين جمعت المودة بيننا ، نجرب لأول مرة فنون الحرب ، لقد خدم طويلاً فى عهده وأبلى ، وكان فى مصاف أشجع الشجعان وامتد به العمر ، ولكن الشيخوخة تسللت إلينا ، كالعجوز الشمطاء فى قبح صورتها ، وتنكر هيئتها فأعجزتنا وأوهنت من بأسنا ، وإنه ليروقنى كثيراً الحديث عن أبيك الكريم ، فقد كان له فى شبابه هذه الفكاهة التى أراها اليوم فى معاشر الشباب من أشرافنا ، ولكنهم يتفكهون الآن حتى لترتد سخريتهم إليهم وهم لا يشعرون ، قبل أن يستطيعوا إخفاء خفتهم فى شرف البسالة ، أما هو فكان مثال البلاطى الحسن فلم تكن السخرية ولا الموجدة من شيمه ، ولا الحدة من خيمه ، ولو بدرت يوماً منه ، فلا يكون ظهورها إلا أن

أنداده هم الذين استثاروها فيه ، وكان الشرف عنده كالساعة فى دقتها ، يعرف اللحظة التى يستوجب منه الغضب الكلام ، فتطلق فيها لسانه ، وأما الذين هم دونه فقد كان يعاملهم كأنداده ، فكان ينحدر من عليائه إلى وهدتهم وينزل من أوجه إلى حضيضهم ، فيجعلهم فخورين بتواضعه ، مزهوين بانحناءته ، وهو من مديحهم الذليل ، يبدو المستحى ، إن رجلاً من هذا الطراز خليق بأن يكون قدوة لشباب اليوم وفتيانه ، ولو اقتدوا به لأثبتوا أنهم للسلف خير خلف .

برترام : إن طيب ذكراه يا مولاى فى خاطرى ، وحسن أثره فى تقديرك لأغلى مما هو مكتوب على قبره ، وإن خير دليل على صفاته الطيبة لهو حديثك الملكى لا النقش الذى على قبره .

الملك : ليتنى كنت معه ، لقد كان يقول على الدوام ، وكأنى الساعة أسمعه ، لا ينثر كلماته السديدة نثراً فى الأسماع ، بل يغرسها ، لتنمو حيث غرسها وتؤتى ثمارها ، لا أود أن تطول حياتى — كان يقولها بعد أن يستمتع ببعض اللهو ويكتئب لذهاب عهد عبثه ، لا أود أن تطول بى الحياة ، بعد أن تخبو جذوة العمر ، وينفذ الزيت من السراج ، حتى يسخر منى الشباب ، ويأنف منى الفتيان ، الذين يحتقرون كل شىء ، إلا ما كان جديداً ، والذين لا يقدرون على شىء إلا ابتداع

الثياب ، وابتكار المطارف ، ويذهب الوفاء عندهم قبل أن تتوارى الأزياء ، هذا هو ماكان يتمناه ، وهو ما أتمناه أيضاً بعد ، وما دمت متعطلاً لا أخرج شمعاً ولا شهداً ، فليتنى من خليتى الراحل المسرع ، لأفسح مكاناً لبعض العاملين والمتجين .

الشريف الأول : إنك محبوب يا مولاى ، والذين هم أقل من سواهم حبًّا لك ، سيكونون أول من يفتقدونك ، ويعز عليهم ذهابك .

الملك : إننى أعرف أنى أملأ مكاناً ، نبثنى ياكونت ، متى قضى الطبيب الذى كان يقيم عند أبيك ، لقد كان ذائع الذكر .

برترام : منذ ستة أشهر أو قرابتها يا مولاى .

الملك : لو كان حيًّا لجربت طبه ، مد لى يدك . . لقد نهك الأطباء الآخرون قواى بما جربه فىّ من طبه كل واحد منهم ، إن الطبيعة والمرض يتنازعان الغلبة على مهل ، مرحباً بك ياكونت إنك عزيز على كولدى .

برترام : شكراً لك يا صاحب الجلالة .

(ينصرفون)

المشهد الثالث

(تدخل الكونتسة ورئيس الخدم والمهرج)

الكونتسة : سأسمع الآن ماذا أنت قائل عن هذه السيدة[١٤] .

رئيس الخدم : أرجو يا سيدتى أن يكون حرصى على إرضاء رغباتك تجدينه مذكوراً فى جهودى الماضية ، ولو عملنا إلى نشر محامدنا ، والإعلان عن حسناتنا ، لأسأنا إلى حياتنا ، وأفسدنا علينا جمال تلك المحامد والحسنات .

الكونتسة : ماذا يفعل هذا الخبيث هنا ؟ . . اذهب يا هذا عنا ، إننى لا أصدق كل تلك الشكاوى التى سمعتها عنك ، وما ذلك إلا لأنى فى الحكم وحلمى ، لأنى أعرف أنك لا تفتقر إلى الحماقة التى تدفعك إلى ارتكابها ولا تعوزك المقدرة على إتيانها .

المهرج : غير خاف عليك يا مولاتى أننى رجل فقير .

الكونتسة : حسن يا هذا ثم ماذا . .

المهرج : كلا يا مولاتى ، ليس حسناً أننى رجل فقير ، وإن شَقِىَ خلقٌ كثير من الأغنياء ، ولكن إذا رضيت يا مولاتى لى الزواج

---

(١٤) هيلين .

استطعنا أنا وإيزابل[١٥] أن نعيش كما ينبغى .

الكونتسة : هل لابد لك أن تصبح «سائلاً» ؟

المهرج : إننى «أسألك» الرضى فى هذا الأمر .

الكونتسة : فى أى أمر .

المهرج : فى أمر إيزابل وأمرى ، إن الخدم لا يتركون ميراثاً ، وأحسبنى لن أنال بركة الله ، حتى أرزق البنين ، لأنهم كما يقول الناس نعم وبركات[١٦] .

الكونتسة : قل لى ما سبب رغبتكم فى الزواج .

المهرج : إن بدنى يا مولاتى يتطلبه ، ومن يدفعه الشيطان إلى أمر ما فهو حتماً مندفع .

الكونتسة : أهذا هو كل ما لدى سيادتك من سبب لرغبتك فى الزواج ؟

المهرج : يميناً يا مولاتى إن لدى أسباباً مقدسة أخرى .

الكونتسة : هل للناس أن يعرفوها . .

المهرج : لقد عشت يا مولاتى إلى اليوم شريراً ، كما أنت وكما هو شأن كل من هو من لحم ودم ، وإنى أريد الزواج لكى أكفر عن ذنوبى .

---

(١٥) إيزابل هى الوصيفة . وكل الوصيفات فى العادة يسمين بهذا الاسم وللزواج فى الإنجليزية تعبير جميل وهو «الذهاب إلى العالم» ولعله يماثل تعبيرنا «الدخول إلى الدنيا» .

(١٦) كقول عامتنا عن الزواج إنه «استكمال لدينهم» ، وقوله إن الأولاد نعم وبركات اعتقاد دينى عام ، وانظر فى الحوار التالى كيف يعلل سبب رغبته فى الزواج ، فهو ملئ بالسخرية والتهكم المرير بالأزواج والحياة الزوجية .

الكونتسة : ستكون على الزواج أسرع ندماً مما ستكون على السيئات .

المهرج : ليس لى صاحب يا مولاتى ، وأرجو أن يكون لى صحاب من أجل زوجتى .

الكونتسة : سيكون هؤلاء الصحاب أعداءً لك يا أحمق .

المهرج : أنت يا مولاتى قليلة الخبرة بالصحاب الكبار ، إن أولئك الحمقى الذين سأصحبهم سيأتون ليؤدوا عنى ما قد تعبت منه ، إن من يحرث لى أرضى ، يوفر لى سائمتى ، ويمكننى من أن أجمع حصادى ، وإذا كنت أنا ديوثه ، فهو الكادح من أجلى ، ومن يرح زوجتى يعزز لحمى ودمى ، ومن يعزز لحمى ودمى يحبب لحمى ودمى ، ومن يحبب لحمى ودمى فهو صديق ، أو بعبارة أخرى ، إن من يقبل زوجتى هو صديق ، ولو قنع الناس بما هم فيه لما كان ثمة خوف من الزواج ، إن الشاب الملتزمت فى دينه والبابوى الشيخ المحافظ على صومه ، مهما اختلف قلباهما فى المذهب ، وتباينا فى العقيدة ، فإن فى رأسيهما شيئاً واحداً ، وهو قرناهما ، يتلاقيان فيه ويتماثلان ، ككل الوعول فى القطيع .

الكونتسة : أتأبى إلا أن تكون سليط اللسان سافلاً هجاءً .

المهرج : نبى يا مولاتى ، أقول الحق من أقرب طريق ، وأردد كالشادى ما الناس واجدوه ، الحق لا ريب فيه ، وهو أن الزواج من صنع القدر ، وأن الوقوق يشدو بحكم الطبيعة .

الكونتسة : اذهب يا هذا ، سأواصل الحديث معك بعد لحظة وجيزة .

رئيس الخدم : هلا سمحت يا مولاتى بأن يدعو هيلين إلى الحضور لأننى أريد أن أتحدث عنها .

الكونتسة : قل يا هذا لوصيفتى ، أعنى هيلين ، أننى أريد أن أتحدث إليها .

المهرج : أكان هذا الوجه الجميل السبب الذى حمل الإغريق على تخريب طروادة ، حماقة منهم ، ونزقاً وتباهياً به واعتزازاً ، وهل كان هذا سر اغتباط الملك بريام وابتهاجه ، قالت هذا ثم تنهدت وهى قائمة ، وقالت هذه العبارة لو أن واحدة صالحة بين تسع طالحات ، وبين تسع طالحات واحدة صالحة ، لكفى أن تكون واحدة صالحة بين عشر طالحات (١٧) .

الكونتسة : ماذا تقول يا هذا ، واحدة صالحة بين عشر ، إنك تشوه الأغنية .

---

(١٧) هيلين اسم مأخوذ من الإلياذة التى وضعها «هوميروس» شاعر اليونان القديمة لتخليد حرب طروادة ، وهذه العبارة كلها مقتبسة من القصة الإغريقية ، وقد تخللتها كلمات اعتراضية كقوله «كذلك قالت» وهذه العبارة بالذات مأخوذة من الشاعر مارللو الذى سبق شكسبير بقوله : «أهذا هو الوجه الذى أنزل إلى البحر ألف جارية» ، وهى جملة مشهورة تتردد على الأفواه ، وفى هذا القول الذى جاء على لسان المهرج سطر مكرر عن «الواحدة الصالحة بين تسع طالحات» ، وأصل القصة أنه كان للملك بريام عشرة أولاد فى حصار طروادة كلهم أحسن البلاء إلا «باريس» فقد هرب ، ولكن المهرج عكس الأمر وقلب الموضوع فجعله عن النساء ، وهذا ما جعل الكونتسه تجيب بقولها «لقد شوهت المقال وأفسدت المثال» .

المهرج : امرأة صالحة بين عشر نساء يا مولاتى ، إن هذا تصحيح للأغنية ليت الله يحبو العالم بهذا طيلة العام ! ولو أننى كنت قسيساً لما وجدت بأساً فى المرأة العاشرة . يقول المرأة العاشرة ولو ظفرنا بمولد امرأة صالحة على مطلع كل كوكب سيار ، أو هزة زلزال[١٨] ، لتحسنت القسمة ، وصلح النصيب[١٩] ، واستطاع الرجل منا أن ينتزع قلبه ، قبل أن يقتطف واحدة .

الكونتسة : اغرب عنا أيها الشقى ، وافعل ما أمرتك به .

المهرج : إن خضوع الرجل لأمر امرأة ، لا بأس منه ولا ضير ولئن لم يكن ثمة ترمت فى الوقاء ، فلن ينتج من هذا ضر ولا أذى بل إنها لترتدى الثوب البابوى المذل فوق الثوب الأسود الذى يرمى إلى تفهم الغالبية .

(تضرب الكونتسة الأرض بقدمها)

إننى منصرف ، ومهمتى أن أدعو هيلين إلى الحضور .

الكونتسة : الآن هات ما عندك .

رئيس الخدم : أعرف يا مولاتى حق المعرفة حبك لوصيفتك .

الكونتسة : يمين الله إنى حقًّا أحبها ، فقد عهد أبوها إلى بها وهى إلى

---

(١٨) كانت النجوم المذنبة والزلازل تعد نذيراً بسوء أو حدث خطير كموت عظيم أو نحوه .

(١٩) أى لتحسنت الفرص للكسب فى «النصيب» وكانت نسبة الربح فيها على عهد الملكة اليزابث واحداً فى الأربعين

جانب مزاياها الأخرى وحسناتها ، جديرة بهذا الحب الذى هى عندى واجدته ، إن ما يُعطى إليها قليل إلى جانب ما تستحقه ، وستُعطَى أكثر مما تطلب .

رئيس الخدم : لقد كنت فى الأيام الأخيرة يا مولاتى أقرب إليها مما كانت تود ، فرأيتها وحدها تناجى نفسها ، وتتحدث بلسانها ، إلى سمعها ، وإنى لشهيد على أنها كانت تظن أن كلامها ، وحديث نجواها ، لم يسترقه سمع ، لقد كان أمرها أنها تحب ابنك ، وكانت تقول إن القدر ليس « إلهًا » رحيماً ، لأنه أقام فارقاً بين مقامها ومقامه ، وإن الحب ليس ربًّا ذا رحمة ، لأنه لا يمد سلطانه إلا حين تماثل السجايا ، وتتشابه الصفات ، وإن ديانا ليست ملكة العذارى ، لأنها تتخلى عن فوارسها وأبطالها ، وتدعهن بغير نصير ، فى الاقتحام الأول ، أو فى الفدية بعد ذلك ، وكانت تقول هذا وهى فى أشد مرارة الأسى والعناء ، وأحزن ما سمعت فى حياتى من عذراء ، فرأيت من واجبى أن أبادر إلى إنهاء الأمر إليك ؛ لأنه يهمك أن تكونى عليمة به ، قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه .

الكونتسة : لقد أديت واجبك مخلصاً ، فدع الأمر فى أطواء نفسك ولا تبح لأحد به ، وقد رأيت من قبل عليه شواهد ، ولكنها بقيت مترنحة فى كفة الميزان ، بين الشك عندى واليقين ،

والآن أرجو أن تنصرف عنى ، وأكتم الأمر فى أعماق صدرك ، وإنى لشاكرة لك حرصك ووفاءك وسأتحدث إليك بعد قليل .

(يخرج رئيس الخدم وتدخل هيلين)

كذلك كان أمرى حين كنت فى شبابى ، إن أجرينا على سنن الطبيعة ، فهذا ما يصيبنا ، وما دام الدم يجرى فى عروقنا فلا بد أن يكون الحب فى دمنا فهو مظهر الطبيعة وخاتمها ، حين تنطبع قوة الحب على صفحة شبابنا ، ونحن حين نذكر أيامنا الخالية ، نتبين أغلاطنا هذه وهفواتنا ، أو أننا لم نفكر يومئذ فى أنها أغلاط ، وإنى أراها الآن قريحة العين من فرط ما بها .

هيلين : ماذا تشاءين يا مولاتى ؟

الكونتسة : أنت تعرفين يا هيلين أننى أم لك .

هيلين : بل مولاتى المعظمة .

الكونتسة : كلا . بل أم . ولم لا ؟ . . يخيل إلى حين قلت أم كأنك شهدت حية تسعى ، فماذا يخيفك من الأم ؟ إنى أقول لك إننى أمك وأضعك فى مصاف من حملتهم فى أحشائى ، ولكم رأينا التبنى (٢٠) منافساً للبنوة ، والاصطفاء يؤتينا ثماراً

---

(٢٠) التبنى والبنوة متنافسان ، تريد أن التبنى لا يقل عن الأمومة ، وقد أرادت أن تبرر هذا فقالت : بل بالعكس إنك لم تتعبينى فى الحمل والوضع .

طبيعية نبتت من بذور أجنبية ، وأنت ما أتعبتيني يوماً كأم فى أيام حملها ، وأوجاع وضعها ، ولكنى أبدى لك حنوها ، وأحس لك رفقها وعطفها ، لك الله يا فتاة . أيجمد الدم فى عروقك حينما أقول إننى أمك ، ما خطبك حتى أرى هذا الرسول الندى على محياك ، وهذا الطيف الشمسى حول عينيك . أذلك كله لأنك ابنتى[٢١] . .

هيلين : لأننى لستها .

الكونتسة : ولكنى أقول إننى أمك .

هيلين : عفواً يا مولاتى ، لا يمكن أن يكون الكونت روسيون أخى ، إننى من أصل وضيع ، وهو من منبت باذخ ، وليس لأهلى ذكر ، وأهله الأشراف الأماجد ، هو مولاى العزيز وأنا خادمة أحيا وأموت تابعة له وموالية ، فلا ينبغى أن يكون لمثلى أخاً .

الكونتسة : ولا أنا أمك[٢٢] ؟ . .

هيلين : أنت أمى يا مولاتى ، ليتك كنت أمى حقًّا ، حتى يكون مولاى ابنك أخى ، حقًّا أنت أمى ، وليتك كنت لنا نحن

---

(٢١) تعبير جميل عن الدموع قوله : «هذا الرسول الندى» أى المبلل على وجهك – وتعبيره عن العبرات الواكفة من عينيها «بالطيف الشمسى» أو قوس قزح . وفى الأصل «إيريس» المتعددة الألوان ، وكانت عند الإغريق ربة هذا الطيف .

(٢٢) كل هذا التردد من هيلين فى قبول الكونتسة أمًّا لها ، يرجع إلى تطلعها نحو الاقتران بالشاب ، فهى لا تريد أن تكون أختاً له ، فإن ذلك يجعل الزواج به مستحيلاً .

الاثنين أمًّا ، إن عنايتى بهذا الأمر لا تقل عن عنايتى بأن يكون مثواى الجنة ، على ألا أكون له أختاً ، وإذا كنت أنا ابنتك ألا يستلزم هذا أن يكون هو أخى ؟

الكونتسة : أجل يا هيلين ، قد تصبحين بنتى ، حماك الله يا بنية ، أنت لا تعنين هذا ولا تقصدينه ، ولكن اضطربت أعصابك ما بين الحب والخوف من اسم الابنة ، والأم تجهد خاطرك ، ماذا أرى ، أيعاودك الشحوب مرة أخرى ، لقد عرف خوفى كيف يكشف حبك ، والآن قد أدركت سر وحدتك وانطوائك على نفسك ، واهتديت إلى باعث مرير عبرتك ، لقد برح الخفاء ، أنت تحبين ابنى ، وليس فى وسعك أن تنكرى حبك إياه ، أمام ما أعلنت عاطفتك ، ونادت به مشاعرك ، فلتنبئينى إذن بالحق ، لتقولى إن الأمر كذلك ، ألا ترين إلى خديك ، كيف يعترف أحدهما للآخر ويقر ، وإلى عينيك كيف تنمان عليك ، كما هو ديدنهما ، وتتحدثان بلغتهما عن حبك ، وإن كان الحياء الأليم والعناد الأثيم ، يمسكان لسانك ، تكلمى حتى لا تُتّهم الحقيقة أو يُستراب بها ، انطقى ! أهو كذلك ؟ . . فإن كان كذلك ، فقد أوجدت لى مشكلة خطيرة ، وإن لم يكن كذلك ، فأقسمى . ومهما اتهمتك فليعاونى الله على خدمتك إذا نبأتنى بالحق .

هيلين : أستميحك يا مولاتى الكريمة مغفرة .

الكونتسة : هل تحبين ابنى ؟

هيلين : مغفرة يا مولاتى النبيلة .

الكونتسة : هل تحبين ابنى ؟

هيلين : ألا تحبينه يا مولاتى ؟

الكونتسة : دعك من اللف والدوران ، إننى ملزمة بفطرتى أن أحبه ، وهذا رباط معروف لكل الناس ، هلمى ، هلمى ، اكشفى عن حبك ، فقد نم عنك كل النّم .

هيلين : إذن أعترف ، وأنا جاثية أمام السموات العلى وأمامك ، أننى أحب ابنك حباً يزيد على حبى لنفسى ويقرب من حبى لله ، لقد كان قومى فقراء ، ولكنهم إخوان صدق ووفاء ، وكذلك حبى ، فلا يسوءنك هذا ، لأنه لا أذاة منه لمن أحب ، ولست متبعة حبى بمطلب جزىء ، وليس لى من ورائه مأرب متبجح ، وما أنا طامعة فيه ، حتى أكون جديرة به ، ولئن كنت لا أعرف كيف تتحقق تلك الجدارة ، ولكنى أعلم أن حبى بلا جدوى ، وأنه مغالبة للأمل ، وإن ظللت أسكب أمواه حبى فى هذا الغربال الذى يتلقى كل شىء ولا يمسك قط بشىء ، ولن أضن على هذا الضياع أبداً بمزيد . وما مثلى إلا كمثل الهندى – أعبد – على خطئى فى الدين – الشمس التى تنظر إلى عابدها ، ولا تدرى عنه شيئاً ، أى مولاتى العزيزة ، حاشاك أن يكون حبى لمن تحبين سبباً فى أن تقابلى

هذا الحب بالبغض ، فأرث إذن لمن حالها مثل حالى ، لا حول لها إلاّ أن تقرض وتعطى ، وهى واثقة من أنها الخاسرة ، ولا تعمل فى هذه الدنيا لأن تجد ما تسعى لنيله ولكنها كاللغز الخفى تجد الحياة الهنيئة حيث تلقى الموت .

الكونتسة : ألم تكن فى نفسك أخيراً نية الذهاب إلى باريس ، قولى الحق .

هيلين : بلى يا مولاتى .

الكونتسة : وما الغرض ، نبئينى بالحق .

هيلين : سأقول الحق ، وأقسم بالرحمن إنى قائلته ، أنت تعلمين أن أبى ترك لى من بعده وصفات طبية نادرة محققة التأثير مما اهتدى إليه من قراءاته ، وأثبتها تجاربه ، وجمعها لتكون حاوية الدواء لكل علة ، ووصانى أشد التوصية بألا أهبها إلا عند الضرورة القصوى ولذوى المقام الكبير ، وهى أقوى مفعولا فى سبيل البرء مما يعزى إليها فى الكتاب ، ومن بين هذه المجموعة دواء مقرر مخصص لشفاء الأوجاع الميئوس منها التى تذوى منها صحة الملك ، ويوشك من أثرها أن يكون من الهالكين .

الكونتسة : أكان هذا هو الباعث لك على سفرك إلى باريس – تكلمى .

هيلين : إن مولاى ابنك هو الذى جعلنى أفكر فى هذا الأمر ، وإلا فما كانت باريس ولا الدواء ولا الملك لتدور يوماً فى خاطرى وما

كان أسعدنى بخلو خاطرى من هذا التفكير .

الكونتسة : ولكن هل تظنين يا هيلين أن الملك سيتقبل الدواء المسعف الذى تزعمين أنك متقدمة به لمعونته ، وهو وأطباؤه مجمعون على رأى واحد ، فأما هو فيرى أنهم لن يستطيعوا إبراءه ، وأما هم فيرون أنهم عن علاجه عاجزون ، فكيف يصدقون عذراء فقيرة لم تصب علماً ، وهم قد أفرغوا كل ما فى الطب من علم ، ثم تركوا الخطر يستفحل يائسين . .

هيلين : إن فى هذا الدواء شيئاً يوحى بأن فيه شيئاً غير براعة أبى ، وإن كان فى المهنة أعظم الأساطين ، وهو أن أسعد ما فى السماء من الكواكب سوف تبارك تركة أبى من علمه ، وتراثه من فنون طبه ، ولو أذنت لى يا مولاتى فى السفر لمضيت أحاول علاج جلالته وانطلقت أبذل حياتى المضيعة فى تجربة برئه ، فى اليوم المحدود والساعة المعينة .

الكونتسة : وهل أنت بذلك موقنة .

هيلين : حق اليقين يا مولاتى .

الكونتسة : لك يا هيلين الإذن والحب والوسائل والأساليب ، والخدم والأتباع ، فاقرئى السلام لذوينا فى البلاط ، وسأقيم أنا هنا داعية الله أن يبارك جهدك ، ويحقق طلبتك ، وليكن السفر غداً ، وثقى أننى لن أضن عليك بكل ما فى وسعى من مدد وعون . .

(تخرجان)

الفصل الثانى

المشهد الأول

(يدخل الملك وفى رفقته عدة أشراف من الشباب للإستئذان فى السفر ليشتركوا فى الحرب الفلورنسية – برترام – بارولس وبعض الحاشية – دق طبول)

الملك : وداعاً أيها الأشراف الشباب[1] ، ولا تنسوا تلك المبادئ العسكرية التى تحدثت إليكم عن وجوب مراعاتها ، وأنتم أيها الأمراء وداعاً ، وتقاسموا نصيحتى بينكم ، فإن خرج الفريقان غانمين ، سَهِّمَا الغنم جميعاً ، وهو كاف لهما معاً .

الشريف الأول : نرجو يا مولاى حين نعود عودة الأجناد المدربين أن نجد جلالتكم بخير وعافية .

الملك : كلا ، كلا ، هيهات ، وإن كان قلبى يأبى أن يعترف بأنه يعانى العلة التى تهدد حياتى ، وداعاً أيها الأشراف الشباب . وسواء حييت أو مت فكونوا أبناء الفرنسيين الأمجاد ، ولتشهدوا إيطاليا العليا ، فحلا الذين يفيدون من سقوط الملك السابق وذهابه ، ولتظهروا أنكم ما جئتم لتخطبوا المحامد ، بل

---

(١) أكبر الظن أن الأشراف الشباب قسمان أو « فريقان » فريق يريد الاشتراك فى القتال مع فلورنسا ، وفريق مع سيينا ، والخطاب هنا موجه إلى الجميع ، وإن لم يشترك فى الحوار خلال هذا المشهد غير شريفين وهما الشريف الأول ج . . وشقيقه الأصغر ب . .

جئتم لتبنوا بها ، وحين يتزوى أشجع الشجعان عن طلب المجد ومناله ، تقدموا لنيله وطِلابه ، حتى تكسبوا حمد الشرف وهتافه العالى ، أهيب بكم وداعاً .

الشريف الأول : لتستجيب الصحة يا مولاى لأمرك ، ولتكن فى خدمة جلالتك .

الملك : وأحذركم من بنات إيطاليا ، إنهن يقلن أننا نحن الفرنسيين تنقصنا كلمة لا إذا طُلبتنا ، واحذروا أن تكونوا « أسرى » قبل أن تدخلوا المعركة .

الشريفان : إن قلوبنا لتعى تحذيركم يا مولاى .

الملك : وداعاً ، تعالوا هنا إلىّ .

(يذهب الملك إلى أريكة)

الشريف الأول : واحاً لك أيها الشريف المحبب ، إنك ستتخلف عنا .

بارولس : ليس ذنب الفتى المتأنق أن يتخلف .

الشريف الثانى : هذه حرب ضروس .

بارولس : وأبدع ما تكون ، وقد شاهدتها .

برترام : وقد أمرت بالبقاء هنا لأكون موضوع القيل والقال ، سيقولون إنه لا يزال فتى حدثاً ، وسيقول آخرون ، دعوه إلى العام القادم ، فلا يزال الوقت باكراً دونه .

بارولس : إذا كنت مصرًّا على الذهاب يا غلام ، فاخرج إلى الميدان خضه وكن شجاعاً .

برترام : أنا هنا ماكث تحت أمر الغوانى ، وهدفاً لعبث الغيد[٢] أنفض نعلى على أديم القصر ، حتى ينفذ الشرف ، ولا يبقى مع المجد ذماء فلا يحمه من السيوف إلا سيف الرقص مع «الراقصات» ، قسماً لأتسللن إلى الحومة «مسترق» الخطوات .

الشريف الأول : إن فى هذا الاسترّاق شرفاً لمقترفه .

بارولس : ارتكبه ياكونت .

الشريف الأول : أنا ملازم لك وقطعة منك ، الآن وداعاً .

برترام : لقد نشأنا معاً ، فالانفصال أليم ، كتقطيع الأوصال .

الشريف الأول : إلى اللقاء أيها الرئيس .

برترام : إلى اللقاء يا عزيزى بارولس .

بارولس : أيها البطلان النبيلان ، إن سيفى وسيفيكما صنوان ، حدة ومضاء ، وبريقاً وسناءً ، وتماثلاً فى المعدن الكريم والماء وإنكما لواجدان فى فرقة الإسبنای ضابطاً يدعى «سبوريو» وعلى وجهه القبيح شارة حرب ، ندبة من جرح إثر طعنة كان حسامى هو طاعنها ، فإذا لقيتماه فقولا له إننى لا أزال حيًّا ، واحفظا ما هو عنى قائل .

---

(٢) أى سوف أخطر إلى المشى فى أذيال الغوانى والرضا بابتذالهن لى والعبارة فى الأصل مأخوذة عن الخيل ، وهى فى حرفيتها «سأكون الحصان الأمامى فى مركبة النساء» وهو الحصان الأول فى مقدمة الخيول التى تجر المركبة الكبيرة .

الشريف الثانى : سنفعل أيها الضابط الكريم .

(يخرج الشريفان)

باروليس : ليرعاكما إله الحرب وليتخذكما تلميذيه المدللين ، والآن ماذا أنت صانع . . .

(هنا يرتفع ستار فيبدو الملك فى مقعده ويتقدم رجال الحاشية به محمولاً عليه) .

برترام : مكانك . . الملك قادم . .

باروليس : كن أكثر احتفالاً بالأشراف النبلاء ، فقد رأيتك متحفظاً معهم بارداً فى توديعك لهم ، ألا زدهم قولاً ، وبياناً ، لأنهم قوم يحرصون على أن يظهروا فى أحسن طراز العصر ، فامش مشية الجند المعلمين مثلهم ، وكل واشرب وتكلم ، واخط على هدى أكثرهم حظوة وأحسنهم قبولاً ، واتبعهم واقْفُ على آثارهم ، وإن كان الشيطان فى الرقص رائدهم ، وكن فى وداعهم أكثر تبسطاً وإسهاباً .

برترام : وإنى لفاعل .

باروليس : إنهم أمجاد وأكبر الظن أنهم سيثبتون بحسن البلاء ، وأنهم من المجالدين الأشداء .

(يخرجان)

(ينزل خدم الملك المقعد – ويدخل لافيه)

لافيه : اغفر لى يا مولاى ولما أحمله من أنباء .

(يجثو أمام الملك)

الملك : انهض وارفع التكليف .

لافيه : هاأنذا أنهض بعد أن نلت المغفرة ، وددت لو أن مولاى جثا ليسألنى المرحمة ، ونهض بأمرى من جثوته .

الملك : وددت لو أنى فعلت ، لأكسر رأسك ثم أسألك المرحمة ، ثم استطعت أن تقف حين آمرك فى الوقوف .

لافيه : فى الحق أنك ضربت ولكن لم تصب[٣] ، إن الأمر وما فيه يا مولاى هو هل تريد البرء من علتك ؟ .

الملك : كلا .

لافيه : يا عجباً ، ألا تأكل عناباً أيها الثعلب الملكى[٤] . . بل والله إنك لآكل من الأعناب الطيبة لو أن الثعلب العظيم استطاع الوصول إليها ، لقد اهتديت إلى طبيبة تقدر على أن تنفخ الحياة فى الصخر ، وتجعلك ترقص رقصة الكروان وتملأك روحاً وحرارة وحركة ، وتكفى لمسة واحدة منها لتنهض من قبر الملك «بيان» ، وتضع القلم فى يد شارلمان ليكتب لها رسالة

---

(٣) اصطلاح أو عبارة مألوفة فى الفروسية والمنازلة بالسيف ، ومعناها أن نكتة الملك لم تصب إصابة نفاذة ولكنه كان فيها كالفارس الذى لا يجيد الضرب فإن ضربته لم ترد عن لمس درع خصمه .

(٤) المعنى ، ألا تعتقد أن علاجك ممكن كالثعلب فى الحكاية المشهورة عنه ، بعد البرء عنباً حامض .

حب وهيام(٥) .

الملك : ومن تكون هذه ؟

لافيه : هى طبيبة قدمت إلينا يا مولاى وليتك تراها ، وأقسم بأيمانى وشرفى ، لو أننى أردت الجد فى التعبير ، بدون الهزل فى قولى ، لقلت إننى تحدثت إلى امرأة أجارتنى بأنوثتها وسنها ، وقدرتها ، وحكمتها ، وصدق عزيمتها ، حتى استولت على دهشة لا أستطيع أن أعزوها إلى ضعفى فهلا أذنت فى مثولها بين يدين ، (لأن لقاءك هو طُلبتها) لتعرف ما تريد ؟ بأن تعجب كيف استولى عليك هذا العجب .

الملك : هات إذن يا لافيه موضع إعجابك ، حتى نقاسمك العجب ، أو نزيله عنك ، وبأن نعجب لك كيف أعجبك .

لافيه : وأنا سأصدع بأمرك ، ولن يستغرق ذلك شيئاً .

(يخرج مسرعاً)

الملك : من يكثر من المقدمات لا يأت بشىء .

لافيه : والآن اقبلى .

(يعود ويفتح الباب لهيلين فتدخل)

---

(٥) الملك بيان ابن شارلمان كانت وفاته عام ٨١٠ ، والمعنى أنها تكفى لإخراجه من قبره ، وأما الإشارة إلى شارلمان وصناعة القلم وفن البيان ، فهى ترديد لما كان يعرف عنه من محاولته فى أخريات أيامه تعلم الكتابة .

الملك : إن لهذه العجلة جناحين حقًّا[٦] .

لافيه : أقبل . . ها هو ذا جلالته ، تحدثى إليه عما يجول فى خاطرك ، إنك لتلوحين دجالة ، ولكن جلالته قلَّما يخشى هذا النوع من الدجالين ، وأنا عم كريسيدا[٧] لا أحجم عن أن أترك الاثنين فى خلوة معاً . . إلى الملتقى .

(يخرج)

الملك : إيه أيتها الحسناء ، هل لعملك صلة بنا .

هيلين : أجل يا مولاى الكريم ، لقد كان جيرار دى نارمون أبى الذى عُرفت فى المهنة براعته .

الملك : إنى كنت أعرفه .

هيلين : حسبى معرفتك له فهى تغنينى عن إزجاء المديح إليه ، وقد أعطانى وهو على فراش الموت عدة وصفات ، أخصها وصفة جاءت أعز ثمرات عمله وأغلى نتائج تجاريبه ، وأمرنى أن أحتفظ بها ، وأحرص عليها كأنها عين ثالثة ، بل أوفر أماناً من عينى الاثنتين ، فصدعت بأمره ، وقد سمعت بما مس جلالتكم من علة قاسية ، تعد عطية أبى فعالة الأثر فى البرء منها فجئت لأقدمها وأستخدمها بكل خضوع وخشوع .

---

(٦) أى ما هذه السرعة فى حضورها ، كأنها جاءت طائرة .

(٧) هو مابداراس الذى أحضر كريسيدا إلى تروبلاس ، والمراد هنا هو أن لافيه أراد التنكيت فقال إنه يرضى أن يترك هيلين فى خلوة مع الملك

الملك : نشكرك أيتها العذراء ، وإن كنا لا نصدق أنها الكفيلة لنا بالشفاء ، بعد أن تركنا أكبر أساتذتنا علماً ، وأجمع معاشر الأطباء ، على أن «الفن» مهما بذل لا يستطيع أن ينقذنا مما جرت به سنن الطبيعة ومن تلك الحال التى ليس منها شفاء — أقول إنه لا ينبغى أن نسىء إلى حكمنا وتقديرنا ، أو نفسد أمنيتنا وأملنا ، بتعريض دائنا العضال ، للتجارب التى لا تقوم على أساس من العلم الصحيح ، ولا نرضى لأنفسنا وكرامتنا أن نتعلل بدجل تافه سخيف ، بعد أن عجزت كل معونة .

هيلين : حسبى أننى أديت واجبى ، فلا أحاول أن أرغمك على قبول خدمتى إرغاماً ، ولكنى بكل خشوع ألتمس من خواطرك يا مولاى خاطراً متواضعاً أعود به من حيث أتيت .

الملك : لن أهبك أقل من شكرى وعرفانى ، فقد خطر لك أن تمدى إلى يد العون ، وأنى لشاكر لك شكر الميت للذين يرجون له الحياة ، ولكنى أعلم حق العلم ما لا تعلمين شيئاً منه ، أنا أعرف كل ما بى من سقم ، وأنت لا تعرفين «فنًّا» .

هيلين : لا بأس أن أحاول ما أستطيع ، ما دمت مصمماً على رفض العلاج ، إن من يؤدى أخطر الفعال ، ويتم أعظم الأعمال ، كثيراً ما يستعين عليها بأضعف الأعوان ، وقد رأينا فى الكتاب المقدس الولدان قضاة أهل سداد ورجحان ، وشهدنا القضاة

فى حكمهم كالولدان[٨] ، وإن أعظم الفيضانات قد ينبعث من أقل الموارد ، وأصغر النبعات ، وإن البحار نضبت حين أنكرت المعجزات وكذبت[٩] ، وكثيراً ما يخيب الذى كان متوقعاً وأكثر ما يكون ذلك حيث يصبح الأمل أعظم ما يكون قوة ، وغالباً ما يتحقق ما كان الأمل فيه واهياً واليأس منه قوياً .

الملك : لا ينبغى لى أن أستمع إليك ، وداعاً أيتها العذراء الحنون الكريمة ، وستجزى نفسك بنفسك على جهودك التى لم تستثمر ، ولئن لم أتقبل ما عرضته ، ولم أستجب لما سألته ، فليكن شكرى لك هو الجزاء .

هيلين : باللكفاية المهملة حين تذار بالقول عن مرادها . . ليس هذا شأن العليم الخبير بكل شىء ، ولكنه شأننا نحن ودأبنا نعتمد على المظاهر وحدها فى كل حِسِّنا وتفكيرنا ، وندعى ما ليس من صنعنا ، ونزعم أن ما فعله الله هو من فعلنا ، أيها العزيز تقبل محاولتى ، ومن السماء ، لا منى ، فلتجرب تجربتى ، ما أنا بدجالة ، ولا مدعية ما ليس لى ، ولا بزاعمة شيئاً أنا عنه عاجزة ، ولكنى أعرف ما أعتقد ، وأعتقد يقيناً أننى

---

(٨) إشارة إلى ما ورد فى التوراة عن سيرة دانيال بشأن الولدان الذين عرفا فى الصغر بالحكمة وفصل الخطاب ، وعن القضاة الذين أخطئوا فى الأحكام وفيما تلا ذلك من الكلام شرح لهذا المعنى وبيان

(٩) إشارة إلى البحر الأحمر وفرعون مصر من طارد موسى وكيف انشق البحر ليمر بقومه .

أعرف ، أن فنى ليس عاجزاً ، وأن مرضك ليس لحدود البرء متجاوزاً .

الملك : أأنت واثقة إلى هذا الحد ، وفى أى فترة تؤملين لى البرء .

هيلين : بعون الله ، قبل أن تتم جياد الشمس التى تحمل مشعلها المتقد دورتها مرتين ، وقبل أن تطفئ فى بحر المغرب الأعظم مصباحها الناعس الخافت إطفاءتين ، أو تنبئ ساعة الربان دقائقها المختلسة كيف تمضى أربعاً وعشرين مرة ، يزول كل ما بجسمك السليم من سقام ، وتحيا الصحة فيه خلية من كل دواء ، ويموت المرض موتاً ، وتفنى العلة فناء[١٠] .

الملك : وما الذى به تغامرين ، إزاء هذه الثقة ، وهذا اليقين ؟

هيلين : إذا لم يتحقق يقينى ، فاعددنى عديمة الحياء ، جريئة جرأة العاهرات ، معلنة العار ، فى أهجى القصائد والأشعار ، ولبيدل اسمى «العذراء» ، بنقيضه فى الصفات والأسماء ، ولتنته حياتى بعذاب الهوان ، وهو ما لا يمكن أن يكون أسوأ من ذلك السوء .

الملك : يخيل إلى أن فى كلامك روحاً مباركة تتحدث ، وفى ضعفك صوتاً قوياً ينبعث ، وأن ما يبدو مستحيلاً أن أنظر إليه فى

---

(١٠) يقول أحد الشراح إنه من الصعب أن نصدق أن شكسبير كتب هذه العبارة أو من الصعب أن نصدقه فيها مع هذا الوصف العجيب لقصر فترة العلاج الكفيل بالشفاء ، ويقول بعضهم إن شكسبير أخطأ هنا فظن أن ساعة الربان فى الباخرة هى ساعة كاملة لأنها تتم دورتها كل نصف ساعة .

ضوء العقل العادى قد يكون مستطاعاً أن أنظر إليه من نواح أخرى ، إن حياتك غالية ، لأنها استوفت فيك كل ما يتطلبه معناها ، ويعز قدرها من قيم ، الشباب ، والجمال ، والحكمة ، والشجاعة ، وكل ما فى إمكان السعادة ونضرة الشباب ، أن تسمياه سعادة ، وأن تغامرى بذلك كله ليدل على أنك حتماً ذات مهارة بالغة ، وحذقاً متناهياً ، أو يوحى بتهور شنيع ، أيتها المتطببة الحسناء ، سأجرب دواءك ، فإن مت منه ، فسيؤدى هذا إلى موتك .

هيلين : إذا تجاوزت الوقت المحدد ، أو أخفقت فى أى جزء صغير مما وعدتك به ، فدعنى أمت بغير رحمة أو رثاء ، لأننى للموت عندئذ مستأهلة ، وهو لى فى الحق جزاء ، وليكن الموت على العجز أجرى ، ولكن بم أنت واعدى ، إذا كان النجاح حليفى ! .

الملك : اطلبى ، توهبى .

هيلين : أحقًّا أنت منجز ما تعد ؟

الملك : أجل ، بسلطان صولجانى ، وأملى فى الله .

هيلين : أتهبنى عندئذ بيدك الملكية ، أى زوج فى مملكتك أشاء على أننى لن تبلغ بى الغطرسة أن أختاره من بيت الملك فى فرنسا أو أن أقرن اسمى المتواضع الصغير ، باسم أى فرع منه ، أو من يمثله ، بل إن هذا الذى أتحدث عنه من أتباعك ، وأنا

أعرف ألا ضير علىّ فى أن أطلبه ولا يعز عليك أن تجيبنى إلى طلبى .

الملك : هذه يدى ؛ موثق موعدى ، وسيكون لك عندى ، ما تشاءين ، فعينى الزمن الذى تطلبين ، لأنى أنا مريضك الذى عقد نيته ، سيضع ثقته فيك على الدوام ، إننى سأسألك فوق ما سألت ، ولا بد لى من ذلك السؤال ، وإن كان الازدياد من طلب المعرفة لا يدل على زيادة فى الثقة من أين أتيت ، وكيف نشأت — ولكنى مرحب بك بدون سؤال ومكرمك بدون أن تداخلنى فى أمرك ريبة — وإذا مضى عونك كعهدك ، لم يكن ما أعمله لك أقل من عملك .

(طبول — ينصرفان)

المشهد الثانى

(تدخل الكونتسة والمهرج)

الكونتسة : أقبل يا هذا فإنى ممتحنتك لأرى إلى أى مدى تبلغ آدابك ، وإلى أى حد يمكن أن يكون فى المجتمع الرفيع مسلكك .

المهرج : سوف أتراءى حسن التغذية ، ردئ التربية[١١] ، وأنا أعرف أن المهمة التى سأمتحن بها لن تتعدى الذهاب إلى البلاط .

الكونتسة : لا تتعدى الذهاب إلى البلاط ! أى مكانة خاصة تتبوأ ، حتى تقول إلى البلاط بهذه السخرية ؟

المهرج : حقًّا يا مولاتى ، إذا وهب الله إنساناً شيئاً من الآداب ، تيسر له أن يخلعها فى البلاط ، ومن لا يستطيع أن يطوى ساقاً ويرفع قبعة ، ويقبل يداً ، ولا يقول شيئاً ، فليست له ساق ولا يدان ، ولا شفة ولا قبعة ، ومن كان هذا شأنه ، فهو فى واقع الأمر ، إن شئت الدقة لا يصلح للبلاط ، أما أنا ، فإن عندى لكل الناس الرد الصالح .

الكونتسة : حقًّا إنه لرد كريم يصلح لكل سؤال .

المهرج : إنه مثل «كرسى» الحلاق ، يصلح لكل الأعجاز ، الناحل ، والسمين ، والمفتول ، وأى عجز .

---

(١١) إشارة إلى مثل يقول «الإطعام خير من التعليم ، أو أطعمنى ولا تعلمنى» أو ما إليه .

الكونتسة : أيصلح ردك لكل الأسئلة .

المهرج : كما تصلح عشرة قروش ليد وكيل مفوض ، والريال الفرنسى للبغى ذات الثوب الحريرى الخفيف ، وخاتم زواج فلان فى أصبع فلانة [١٢] وقطعة الفطير لثلاثاء الزفر ، ورقص المغاربة لعيد الربيع [١٣] ، والمسمار للشق الذى يدخل فيه ، والديوث لقرنه ، وكما تصلح الفاجرة اللوامة للوغد الشرس ، وشفتا الراهبة لفم الراهب ، والحشو للأديم الذى يحويه .

الكونتسة : إنى أسألك هل لديك ردًّا يصلح لكل الأسئلة .

المهرج : إن ردى يصلح لأى سؤال ممن هم دون « الدوق » عندكم إلى من هم تحت « الكونستابل » .

الكونتسة : لابد أن يكون ردًّا ضخم الحجم حتى يصلح لكل المطالب .

المهرج : ولكنه قد لا يكون إلى حدٍّ ما فى الحقيقة ، إذا تحدث العارفون عنه على حقيقته ، ها هو ذا بكل ما يتعلق به ، سليني هل أنا من رجال البلاط ، ولا تخشى من الجواب ضيراً .

---

(١٢) فى الأصل « تب وتوم » وهما من أسماء العامة كزقزوق وظريفة عندنا ، وكانت العادة قديمة أن يعطى الرجل خاتماً من الأسل إلى المرأة ليعيشا معاً فى حياة أشبه بالزواج . ولكن ليس به فى الحقيقة ، وقد نبه رجال الدين فى القرن الثالث عشر إلى هذه العادة المستهجنة ، وأن النساء قد يخدعن بالخاتم فيسلمن للدين يخدعهن به ، والمعنى هنا أن هذا الشىء زهيد بخس .

(١٣) فى الأصل « الموريس لعيد مايو » وقد رأيت بعض المفسرين يقول : إن الموريس هو « المغربى » أو المراكشى ، أى نوع من الرقص .

الكونتسة : ليتنا نعرف كيف نعود إلى الشباب لنلهو ، إننى فى توجيه هذا السؤال إليك سأكون خالية من الفطنة ، ولكنى أرجو أن أصيبها من ردك ، قل لى من فضلك يا سيدى هل أنت من أهل البلاط ؟

المهرج : مولاى وسيدى[١٤] ، هذا سؤال لا رد لى عليه غير تأجيله ، اسألى سؤالاً آخر ، مائة من الأسئلة .

الكونتسة : إننى صديقة لك مسكينة ، صديقة تحبك .

المهرج : مولاى وسيدى . . هذا كثير . هذا كثير . . لا تتخلى عنى .

الكونتسة : أظنك يا سيدى لا تأكل من هذا اللحم المنزلى . .

المهرج : مولاى وسيدى ، بل ها أنا أناشدك .

الكونتسة : أحسبك يا سيدى قد ضربت بالسوط من عهد قريب .

المهرج : مولاى وسيدى ، لا تتركينى .

الكونتسة : هل تصيح «مولاى وسيدى» عندما تساط ، وهل تقول «لا تتركنى» ؟ ، حقًّا إن صيحتك «مولاى وسيدى» لأنسب لازمة لضربك ، وخير رد على جلدك ، إذا شد له وثاقك ، وكان فيه قيدك .

المهرج : لم أشهد فى حياتى أتعس حظًّا منى فى قولى «مولاى وسيدى»

---

(١٤) هكذا اعتاد رجال البلاط أن يتخاطبوا «مولاى وسيدى» عند الإجابة عن كل سؤال ، والمهرج هنا يقلدهم تهكماً بهم وسخرية من غفلتهم .

وأعتقد أن الأشياء قد تخدم المرء طويلاً ، ولكنها لا تخدمه دائماً .

الكونتسة : إننى أضيع وقتى عبثاً كربة بيت فى التفكه مع مهرج .

المهرج : مولاى وسيدى . . هاهى ذى تخدم الآن مرة أخرى .

الكونتسة : كفى هذراً يا هذا . . خذ هذا الكتاب إلى هيلين وقل لها تعجلى بالجواب . واقرئى قومى وابنى السلام وليس هذا بكثير .

المهرج : ليس بكثير إقراؤهم السلام .

الكونتسة : أنت فاهم مرادى . ليس بعمل كثير لك .

المهرج : بكل إخلاص سأكون هناك قبل ساقى .

الكونتسة : وعد بمثل عجلتك ذاهباً .

(بخرجان)

المشهد الثالث

(يدخل برترام ولافيه الشيخ وبارولس)

لافيه : يقولون لقد مضى عهد المعجزات . ولا نزال نرى بيننا من «المتفلسفة» من يجعلون الخوارق والأحداث التى لا ترجع إلى علل ومسببات ، شيئاً مألوفاً ، وأمراً عادياً . ولم نعد نخشى الخوارق ، بل نحاول تعليلها أحياناً ، بظواهر الطبيعة ونواميسها[١٥] ، وكان أولى بنا أن نرتضيها كما هى إيماناً ، ونعدها خارقة يقيناً .

بارولس : إنها لأندر أعجوبة ظهرت فى أيامنا هذه .

برترام : إنها لكذلك .

لافيه : أن ييأس من برئه الأماطين .

بارولس : هذا ما أقول وجالينوس وباراسيلسوس كذلك[١٦] .

لافيه : وسائر العلماء والجهابذة .

بارولس : حقّاً .

---

(١٥) أى يحاول العلماء أن يقولوا : إن الحوادث التى ليس لها سبب طبيعى هى حوادث عادية مألوفة ، ولم نعد نخاف من الخوارق ونردها إلى أسباب طبيعية ، وكان أولى بنا أم نؤمن بها بدون بحث أو تحقيق فى عللها . ولعله فى قوله : «الحكماء» يشير إلى السير والتر رالى وأشياعه الملاحدة الذين ينكرون الخوارق والمعجزات . «والمتفلسفة» أدعياء الفلسفة وفى الأصل «الأشخاص المتفلسفون» .

(١٦) طبيبان مشهوران فى القرون الماضية .

لافيه : الذين حسبوا علته مستعصية عضالاً .

بارولس : هذا هو عين ما أقول[١٧] .

لافيه : ليس فى وسعنا أن نقول غير ما قلنا .

بارولس : حقًّا . وفى الواقع . كأن رجلاً يؤكد له .

لافيه : إن حياته فى خطر وموته محقق .

بارولس : قلت حقًّا . وهو ما كنت أنا قائله .

لافيه : والحق أقول إنها لحدث جديد فى العالم .

بارولس : هو كذلك فى الواقع ، ولو عرض على الناس لقرأته فيما يدعونه .

لافيه : « بحث فى المعجزات السماوية . على أيد بشرية »[١٨] .

بارولس : تماماً ، وهو ما كنت قائلة بعينه .

لافيه : إن درفينك ليس أكثر بأساً[١٩] إننى أتكلم عن . .

بارولس : إنه لغريب . بل جد غريب . هذا هو جملة الأمر وتكراره ، وهو وإن كان ذا الروح الشريرة لا يريد أن يعترف بأنه . .

لافيه : من صنع السماء .

بارولس : نعم ، هذا ما أقوله .

---

(١٧) يلاحظ أن بارولس يؤمن على كل ما يقال ليوهم أنه يعرف كل شىء ، كما سيبدو فى الحوار التالى كلة .

(١٨) الظاهر أن هذا هو عنوان كتاب أو رسالة فى موضوع المعجزات ، والكلام على هذا النحو يتضمن سخرية منه ومن العلماء الذين ينحون فى تعليلهم للخوارق والمعجزات هذا النحو .

(١٩) «الدرفين» مشهور بكثرة القفز والوثق ، وهو ما يبدو من بارولس فى تأميناته على كلام الشيخ .

لافيه : إن فى أضعف الخلق .

باروليس : وأوهنهم قوة عظيمة ، وسمًّا بالغاً ، قد تنتفع بها فى شىء آخر غير شفاء الملك من علته حتى . .

لافيه : حتى يظفر بشكر الناس جميعاً وعرفانهم .

(يدخل الملك وهيلين والحاشية)

باروليس : كنت أريد أن أقول ذلك . لقد أحسنت القول ، ها هو ذا الملك قادم .

لافيه : شىء يفرح ، ليتنى أظفر بفتاة كهذه وأنا لى سن فى فمى يا عجباً ، إنه ليستطيع أن يتقدم بها إلى حلبة رقص .

باروليس : عجباً . . أليست هذه هيلين .

لافيه : أى والله ، إنى لأظنها هى .

الملك : اذهبوا ادعوا إلى كل أشراف البلاط وساداته ، واجلسى يا متقدتى بجانب مريضك . وبهذه اليد الموفورة العافية التى رددت إليها إحساسها الذاهب تلقى مرة أخرى توكيد وعدى لأنه لا ينتظر غير أن تعينى من هو ليكون لك من تشاءين .

(يدخل ثلاثة أشراف أو أربعة ويقفون أمام الملك وينضم إليهم برترام)

– أيتها الحسناء أرسلى بصرك إلى هؤلاء الشباب ، من الأشراف العزاب ، هاهم أولاء يقفون ماثلين ينتظرون هبتى ، وسيادة سلطانى ، وصوت أبوتى ، فمن حقك أن تختارى ، وليس لأحد أن يرفض .

هيلين : لكل منكم حسناء ذات خلق ، إذا شاء الحب أن يجعلها من نصيبه ، إلا واحداً .

لافيه : إنى لأنزل عن حصانى «كيرتال» بسرجه وعدته ، لو كان لى أسنان كهؤلاء الفتيان ، ولحية قصيرة كلحاهم .

الملك : تأمليهم طويلاً ، لا من شاب بينهم إلا من أب ماجد .

(تتقدم إلى أحدهم)

هيلين : أيها السادة ، إن الله قد رد على يدىّ إلى الملك صحته .

الجميع : لقد علمنا ذلك ونحمد الله إليك .

هيلين : لست إلا فتاة خفرة ، أعز ما تملك الحياء[٢٠] ، وأغلى ما عندها الخفر ، وها أنذى يا صاحب الجلالة أستشعره ، ولا أنكره ، إن الحمرة التى علت الوجنتين تهمس لى «أن أستحى من أن تختارى ، فترفضى ، فليعد البياض إلى الوجنة أبداً ، ولن أعلو لك صفحة ولا أصعد خداً» .

الملك : اختارى ، وانظرى ، من يأب حبك ، يأب حبى كله .

هيلين : الآن من معبدك يا ديانا أطير[٢١] ، وإلى الحب الجليل ، ذلك الإله الرفيع ، تتدفق زفراتى .

— سيدى هل تستمع إلى خطبتى ؟

---

(٢٠) تقول : إن «الحياء» يتحدث إليها ، ويقول لها : إنى أخشى من أن تقابلى بالرفض .

(٢١) المعنى أننى الآن سأترك عبادة «ديانا» إلهة العذارى والتبتل ملتمسة حياة الأزواج ، وقد قالت هيلين كلمتها هذه قبل أن تنهض لتطوف على الأشراف الشباب ، إلى أن تنتهى عند برترام .

الشريف الأول : وأوافق عليها .

هيلين : شكراً يا سيدى وهذا حسبى .

لافيه : إنى لأوثر أن أكون فى هذا الاختيار ، على أن أرمى النرد على الحياة أو الموت فأصيب الخسارة .

هيلين : إن الشرف يا سيدى الذى يتقد فى عينيك الجميلتين يجيبنى قبل أن أتكلم متوعداً ، مهدداً ، إن الحب يجعل قدرك فوق من تريدك ، عشرين مرة ، وفوق حبها المتواضع .

الشريف الثانى : لا أرجو مزيداً .

هيلين : إن رغبتى هى أن تتلقى ما يمنح الحب العظيم ، وبهذا أنصرف .

لافيه : أكلهم رافض سؤالها ، لوكان هؤلاء أولادى ، لأمرت بجلدهم أو لبعثت بهم إلى التركى ليجعل منهم خصياناً .

هيلين : (إلى شريف آخر) لا تخش أن أتناول يدك ، لأنى لا أريد أن أسىء إليك إكراماً لك وإنما أدعو لك بالبركات ، وأن يسعدك الحظ فتجد فى فراشك خيراً منى إذا تزوجت .

لافيه : كأن هؤلاء فتيان من الجليد ، لأن كلهم لا يريدها ، لا شك عندى فى أنهم ليسوا من أبناء الإنجليز ، ولا هم من أصلاب الفرنسيين[٢٢] .

---

(٢٢) أى ليست لديهم الرجولة وقوة الإحساس اللتان عند هؤلاء وأولئك .

هيلين : أنت من حداثة السن ، ونقاء الخاطر ، ووفرة الطيبة بحيث لا تصلح أن تأتى بولد من دمى .

الشريف الرابع : لا أظن ذلك أيتها الحسناء .

لافيه : لا يزال هنا واحد يجرى فى عروقه دم طيب من أبيه ، فإذا لم تكن أنت حماراً ، فأنا غلام فى الرابعة عشرة ، لقد عرفتك من قبل .

هيلين : (لبرترام) لا أجرؤ على القول بأنى آخذك ، بل أقول أعطيك ، نفسى وإخلاصى ما دمت حية ، أسترشد بعونك ، وأستلهم قوتك ، هذا هو الرجل الذى أريده .

الملك : إذن أيها الشاب برترام ، خذها إنها زوجك .

برترام : زوجتى يا مولاى ؟ إنى ألتمس من جلالتك أن تأذن لى فى هذا الأمر أن أستعين عينى ، وأستوحى فيه ناظرى .

الملك : ألا تعلم ماذا صنعت لى ؟ .

برترام : أجل ، يا مولاى الكريم ، ولكنى لا أرجو يوماً أن أعرف لم ينبغى أن أتزوج بها .

الملك : أنت تعلم أنها أنهضتنى من فراش مرضى .

برترام : ولكن أيستلزم هذا يا مولاى أن تعرضنى للمهانة والعار ، أفهل من واجبى أن أتحمل أنا نتيجة برئك ؟ . . إننى أعرفها حق المعرفة ، لقد كان أبى هو الذى تولى تنشئتها ، أفأتخذ ابنة طبيب فقير لى زوجاً ، سيلحقنى بذلك عار لا ينمحى أبداً .

الملك : إن ما تحتقره من شأنها مرده إلى اللقب وحده ، وفى وسعى أن أهبها إياه ، ومن عجب أن لا تفترق فى الدم ، ولا فى اللون ، ولا فى الوزن ، ولا فى حرارة البدن ، ولكنا مع ذلك كله لا نزال فى أمر الألقاب جد مختلفين ، وإذا كانت الفتاة ربة فضائل (ولا ينقصها إلا ما تكرهه فيها وهو أنها فتاة فقيرة ابنة طيب) ، فإنك إذن تكره الفضيلة من أجل المحتد واللقب ، ولكنى أربأ بك أن تفعل ، وإذا أتت المكارم من المكان الأوهد ، شرف المكان بما يفعله شاغله أما إذا ضخمت الألقاب ، وازدهينا بها ، بغير خلال ، فشرفها أجوف ، والمجد بها مزيف ، إن الخير وحده هو الخير بغير لقب ، وكذلك شأن الشر ، لا يؤخذ بلقبه وخطره ، وإنما يؤخذ بفعله وأثره ، إنها فتاة ، حكيمة ، جميلة ، ورثت كل هذه المحامد من الفطرة ذاتها ، وحسب ذلك للشرف الرفيع بانياً ، وعن اللقب الكبير مغنياً ، وما يتراءى شرفاً موروثاً ، ويدعى أنه جاء من المنبت مغروساً ، هو من الشرف سخرية ، إذا لم يكن مماثلاً لمن ورث منه ، إن الشرف لينمو بأعمالنا ويبذخ ويسمو بفضل فعالنا ، لا بأسلافنا ، وألقاب آبائنا ، إن كلمة « شرف » مزدراة على كل قبر ، وهى نصب كاذب على كل حدث ، وكثيراً ما تكون نصباً أخرس أصم ، فوق تراب يهال ويركم ونسيان وعدم ، فوق العظام الشريفة حقًّا ، وماذا

عساك أن تقول ؟ . . إذا لم تستطع أن تقبل هذه المخلوقة فتاة عذراء ، فإنى بالباق لزعيم ، بائنتها هى ذاتها وفضيلتها ، أما الشرف واليسار فأنا كفيل بهما .

برترام : لا أستطيع أن أحبها ، ولا أن أحاول أن أحبها .

الملك : إنك لظالم لنفسك إذا حاولت أن تختار .

هيلين : حسبى يا مولاى أنك استرددت عافيتك ، ودع ما دون ذلك .

الملك : إن شرفى أصبح مهدداً ، فلأفزع إلى سلطانى ، دفاعاً عنه وذوداً ، اسمع أيها الغلام المتكبر المتعجرف ، تناول يدها ، إنك بهذه الهدية الكريمة غير خليق ، وأنت بهذه السخرية المنكرة تنتقص من حيى ومن قدرها . ألا تدرى أننا لو وضعنا قدرنا معها فى الكفة المرجوحة ، لشالت كفتك ، ألا تعلم أننا نحن الذين ننبت شرفك حيث نشاء أن ينمو وينضر ، دع عنك هذا الازدراء ، وأطع مشيئتنا . لأنها تعمل لخيرك ، ولا تصدق زهوك وخيلاءك ، وبادر إلى إيتاء نفسك حقها الذى يفرضه الواجب عليك ، ويتطلبه سلطاننا منك ، وإلا لفظتك من عطفى إلى الأبد ، وألقيت بك إلى التيه ، والتشرد ، وتركتك لفراغ الشباب والجهل ، وأطلقت موجدتى وكراهيتى تفترسانك افتراساً ، باسم العدالة ، بدون رحمة ، تكلم ، قل ما جوابك ؟

برترام : عفواً أيها المولى الكريم ، إنى أعرض ولائى وحبى على عينيك ، وبعد أن شهدت كيف تنفذ فى العظائم مشيئتك ، ويطير الشرف الباذخ حيث تأمره أن يطير ، رأيت التى كانت بالأمس فى خاطرى أحقر المخلوقات ، تصبح اليوم موضع إطراء الملك ، فكأنها بهذا التشريف ولدت شريفة ، وجاءت من المنبت من المكرمات .

الملك : خذها باليد وقل لها إنها صاحبتك ؛ وإنى لواعدها عدل ذلك عطاء ، فإذا لم يكن بقدر ما أوتيت ، فأكثر منه ، ولدينا مزيد .

برترام : أتقبل يدها .

الملك : الحظ السعيد ، وحظوة الملك يباركان هذا القران وسيتلوه الزفاف على الأثر ، فيقام الليلة بالذات ، بعد توقيع الأوراق القانونية وقد أعدت من قبل ، أما الاحتفال الرسمى فسيؤجل حتى يقدم الصحاب الغائبون ، وإذا أحببتها كان حبك فى عينى فريضة مقدسة ، وإلا كان النقيض خطيئة وإثماً .

(يخرجون عدا لافيه وبارولس للتعقيب على هذا القران)

لافيه : هل سمعت يا سيد ؟ أريد كلمة معك .

بارولس : أمرك يا سيدى

لافيه : لقد أحسن مولاك وسيدك فى تراجعه عن أبائه .

بارولس : تراجعه ؟ مولاى . . . سيدى ؟ !

لافيه : نعم ، أليس هذا لغة مفهومة وكلاماً واضحاً ؟

بارولس : أغلظ لغة وأخشن كلام ، ولا يمكن أن يفهم ، بغير سفك دم[٢٣] ، أتقول عنه أنه سيدى ؟

لافيه : أأنت إذن رفيق للكونت روسيون وند له . .

بارولس : ند لأى كونت ، ولكل كونت فى العالم ، ولكل رجل .

لافيه : لكل رجل فى خدمة الكونت . أما سيد كونت فمن طراز آخر .

بارولس : أنت شيخ هرم ، فلتقنع بهذا الذى أنت فيه .

لافيه : لتعلم يا هذا أننى رجل . وهى صفة لن تكسبك الشيخوخة منها شيئاً .

بارولس : إن ما أجرؤ على فعله وأحسنه ، لا أفعله .

(يضع يده على مقبض سيفه)

لافيه : لقد ظننتك بعد جلستين إلى العشاء إنساناً أريباً عاقلاً ، لأنى سمعتك تتحدث بإسهاب عن رحلاتك ، فقلت جائر ، ولا بأس ، ولكن ثيابك وشاراتك صرفتنى كثيراً عن اعتقادى أنك وعاء ثقيل الحمل ، كبير الوزن ، لقد اكتشفتك الآن ، فلا أراع إذا أنا عدت ففقدتك ، إن مخلوق لا تصلح إلا لأن تكون نفراً فى الجندية وإن لم تكن بهذا خليقاً .

---

(٢٣) فى الأصل – بغير معركة مميتة – أى لا بد من مبارزتك وقتلك جزاء لك على هذا الكلام المهين .

بارولس : لولا أنك طاعن فى السن ، لما . . .

لافيه : لا تستسلم كثيراً للغضب ، فتعجل بنفسك ، رحمة الله عليك ، إنك لدجاجة «قواقة» ، إلى اللقاء إذن يا نافذة ذات قضبان متقاطعة(٢٤) ، لا حاجة بى إلى أن أفتح إطارها ، لأنى أخترقك بناظرى ، هات يدك .

(يمد إليه يده)

بارولس : يا سيدى إنك لتزدرينى أبشع ازدراء .

لافيه : أجل من كل قلبى ، وأنت به جدير .

بارولس : لا أستحق هذا يا سيدى منك .

لافيه : بل يمين الله أنت مستحق لكل درهم منه ، ولن أنقصك مثقال ذرة .

بارولس : سأزداد عقلاً .

لافيه : أسرع قدر جهدك ، لأنك لن تلبث أن تذوق طعم النقيض وتدرك بعد هذا الفعل الذى تدعيه أنك أحمق ، ولو قُدر لك يوماً أن يشد وثاقك بملفعتك ، وتضرب ، لعرفت عندئذ كيف تفاخر وتزهى بمهانتك ورباط مذلتك ، إننى لأود أن أمتنع عن معرفتك أو بالحرى عن علمى بك ، حتى أستطيع إذا احتاج الأمر أن أقول إننى عرفت رجلاً .

---

(٢٤) شيش شباك ، نافذة بشبكة يمكن النظر من خلال ثقوبها – أى أنك مكشوف .

باروليس : إنك يا مولاى تغضبنى غضباً لا يحتمل مطلقاً .

لافيه : لوددت أن يكون عذاب الجحيم لك ، وأن يبقى عملى هذا القليل قائماً إلى الأبد ، لأنى فت زمان العمل وتجاوزته ، كما أفوتك الساعة وأتجاوز عنك مسرعاً قدر ما تسمح به سنى المتقدمة .

(يخرج)

باروليس : إن لك ابناً سيحمل هذه المعرة عنى أيها الشريف الشيخ القدر الأجرب ، ولكنى لآخذن نفسى بالصبر والتجلد ، فلا جدوى من منازعة أهل السلطان ، ومجادلة ذوى الجاه والنفوذ ، وحق حياتى إذا لقيته فى وقت مناسب لضربته ولو كان مائة شريف فى بعضهم البعض ، ولن تأخذنى بسنه رحمة ، سأضربه إذا أنا لقيته مرة أخرى .

(يدخل لافيه)

لافيه : يا هذا ، إن مولاك وسيدك قد تزوج ، هذا نبأ جديد لك . . ستكون لك مولاة وسيدة جديدة .

باروليس : أرجوك يا مولاى مخلصاً أن تقلل من إهاناتك ، وترفق قليلاً فى غلوائك ، إنه مولى كريم ، أما سيدى الذى أدين له بالطاعة فهو الذى فوقنا .

لافيه : من . . الله ؟

باروليس : أى نعم يا سيدى .

لافيه : بل الشيطان مولاك ، لماذا أراك تربط ذراعيك فى هذا الثوب الرحيب الكم ، أتجعل من كميك جورباً ، وهل يفعل الخدم الآخرون هذا ، لخير لك لو أن جُزْءَكَ الأسفل كان حيث يقف منخارك ، وشرفى لو أنى كنت أصغر سنًّا منى بساعتين اثنتين لضربتك ، ليخيل إلى أنك إهانة للناس عامة ، وأن على كل إنسان منهم أن يضربك ، وأعتقد أنك إنما خلقت لينفس الناس فيك عن صدورهم .

باروليس : هذه معاملة أليمة لا أستحقها يا مولاى .

لافيه : حسبك يا سيد لقد ضربت فى إيطاليا لأنك سرقت حبة رمان ، وأنك لشريد عيار[٢٥] ، لا أخو رحلات حقًّا ولا صاحب أسفار وليس لك حق فى الانتساب إلى السادات الكبار ، والانتماء إلى الأشراف وذوى الأقدار ، لأنك عديم النسب ، غير مذكور فى دفاتر الشرفاء ولا مدون فى القوائم والسجلات[٢٦] ، ولا أحسبك تستحق كلمة أخرى وإلا لقلت لك أنك وغد ، إننى تاركك .

(يخرج - ويدخل برترام)

باروليس : بديع . . بديع جداً ، لقد تم الأمر إذن . . بديع ، بديع جدًّا ، دع الأمر مكتوماً إلى حين .

---

(٢٥) العيار الذى يجوب الآفاق يسأل الناس طعاماً .

(٢٦) ليس لك حق شرعى من جهة مولدك وأصلك فى اعتبارك سيداً أصيلاً .

برترام : لقد قضى على . وتركت للهموم والمتاعب إلى الأبد .

بارولس : ما الخبر ، يا حبيبي ؟

برترام : لن يحتويني فراش بجانبها ، وإن كنت قد أقسمت بين يدى الكاهن .

بارولس : ماذا تقول ، ماذا تقول يا حبيبي ؟

برترام : أواه يا بارولس ، لقد زوجوني مكرهاً ، إنني منطلق إلى حروب تسكانيا ، ولن أعاشرها .

بارولس : إن فرنسا جحر للكلاب ولا تستحق أن يطأها الإنسان بقدميه ، فإلى الحرب إذن .

برترام : لقد جاءت رسائل من أمي ، ولكني إلى الساعة لا أعلم ماذا تحوى .

بارولس : لابد من معرفة ما فيها ، إلى الحرب يا بني . . إلى الحرب ، إن من يقيم هنا مع زوجة لينعم بالعناق والأحضان ، كمن يحتجز الشرف فى صندوق خفي لا يراه إنسان ، مستنفداً رجولته بين ذراعيها ، وأولى بهذه الرجولة أن تدخر لوثبة الحصان فى سعرة الحرب ، وحومة الميدان . . فهلم إلى إقليم غير هذا الإقليم ، إن فرنسا اسطبل ، ونحن الذين نقيم فيها خيل لا بالكرام المطهمات ، ولا بالجياد الصافنات ، فإلى الحرب .

برترام : ليكونن هذا ، وسأردها إلى دارنا ، وأنبئ أمي عن كراهيتي لها ، وإلى أني أنا فازع لاجئ ، وأكتب إلى الملك مالا أجرؤ

على قوله ، إن عطيته ستدفع بى إلى الميادين الإيطالية التى يصول فيها الفتيان الكرام ويجولون ، إن الحرب لأهون من بيت مظلم ، وزوج مكروة[٢٧] .

بارولس : هل أنت واثق من أن هذه النزعة الفجائية ستستقر فى نفسك ؟

برترام : تعال معى إلى مخدعى ، لأستنصحك ، سأردها بغير توان ، وغداً إلى النزال والطعان ، أما هى فإلى الأشجان وحدها والأحزان .

بارولس : إن هذه الكرات الوثابة[٢٨] تحدث أصواتاً ، وإن هذا الأمر ليحز فى نفسى ، إن الشاب المقترن ، هو بالبلية مقرن[٢٩] ، فانطلق إذن واتركها بشجاعة وكرم ، إذهب ، لقد ظلمك الملك بهذا القران ، ولكن عليك بالكتمان .

(يخرجان)

---

(٢٧) أى أن الحرب لا تقاس متاعبها وأهوالها بالزواج الذى لا سعادة فيه ولا رضاً . إذا كان الزوج يكره زوجته . وفى تفسير آخر لكلمة بيت مظلم إن الحرب أهون من الجنون ، إذ كانت العادة يومئذ أن يدفع المجنون فى مكان مظلم .

(٢٨) يشير إلى كرة التنس – التى تصنع من الجلد وتحشى بالشعر ، والكرة الجيدة منها تثب من فوق الأرض الصلبة فى حلبة اللعب فتحدث صوتاً .

(٢٩) هنا شىء من الجناس بين مقترن ومقرن ، والمقرن هو المكبل بالأصفاد والسلاسل .

المشهد الرابع

(تدخل هيلين – والمهرج)

هيلين : إن أمى لكريمة فى تحياتها وسلامها ، أهى بخير؟

المهرج : ليست بخير ، وإن كانت بصحتها ، وهى فى أشد المرح ، ومع ذلك فليست بخير ، والحمد لله والشكر ، على أنها بخير ، وليست بها إلى الدنيا حاجة ، بيد أنها ليست بخير .

هيلين : إذا كانت بخير ، فما يسقمها حتى لا تكون بخير؟

المهرج : إنها فى الحقيقة بخير تام إلا من أمرين .

هيلين : وما هما هذان الأمران ؟

المهرج : أولهما أنها ليست فى السماء ، إلى حيث يرسلها الله عاجلاً ، والآخر أنها فى الأرض ، من حيث يرسلها الله سريعاً(٣٠) .

(يدخل بارولس)

بارولس : بوركت أيتها السيدة السعيدة الحظ .

هيلين : أرجو يا سيدى أن يكون لى إخلاصك ويكون لك سعادة حظى .

بارولس : لقد دعوت لك من قبل أن تحتفظى بها ، فإن الاحتفاظ بها

---

(٣٠) من الصعب أن ننسب كلاماً كهذا لا يفهم المراد منه إلى شكسبير ولكن كل هذا القول من المهرج يشير إلى اعتقاد الناس فى ذلك العهد أن الموت أحسن من الحياة .

معناه أنها لا تزال باقية[٣١] ، وأنت أيها الشقى كيف «تفعل» مولاتك العجوز .

المهرج : لكى تكون لك غضونها ، ويكون لى مالها ، وددت لو أنها «فعلت» كما تقول[٣٢] .

بارولس : أنا لم أقل شيئاً .

المهرج : والعذراء إنك لحكيم ، لكم من رجل أوقى لساناً يسبب هلاك مولاه ، إنك ستقضى الجزء الأكبر من حياتك لا تقول شيئاً ولا تعرف شيئاً ، ولا تفعل شيئاً ، ولا تملك شيئاً ، وإن حياتك هذه لتقرب كثيراً من لاشىء .

بارولس : بعداً لك إنك لوغد .

المهرج : أولى بك أن تقولها أما وغد إنك وغد ، أى أنك أمامى وغد ، وهذه هى الحقيقة يا سيدى .

بارولس : حسبك ، أنك لمهذار أحمق ، وقد اكتشفتك .

المهرج : هل اكتشفتنى فى نفسك يا سيدى ، أو هل علمت أن تكتشفنى . إن البحث كان لك مغنماً ، ولعلك مكتشف حمقاً كثيراً فيك ، فيلهو الناس بك ويزداد بك الضحك فى

---

(٣١) لعله يشير إلى الحديث الذى جرى من قبل بينهما عن الزواج ، وإلى ما حدث بعد ذلك .

(٣٢) كان رد المهرج على بارولس حين سأله ماذا تفعل مولاته ، أنه يود لو أنها «فعلت» كما يقول ، وكلمة «فعلت» فى الإنجليزية وهى did تتشابه لفظاً مع كلمة dead أى «ميت» أى وددت لو أنها «ماتت» .

هذا العالم .

باروليس : أنت والله لوغد طيب ، ناعم بغذاء حسن[٣٣] ، سيدتى إن مولاى سيسافر الليلة فى مهمة خطيرة تستوجب رحيله ، وهو لحقك العظيم ، والحب الذى تقتضين مقر معترف ، ولكنه مرجئه لظروف قاهرة ، وسيتركر النعيم كله فى هذه الفترة وتقطر المتعة خلالها ، وتنق طيلة هذه المهلة ، وبسبب هذا التأخير الذى لا معدى عنه ، حتى إذا حانت الساعة للقاء ، استفاض الفرح وامتلأ الإناء ، وبلغ السرور الخافقين .

هيلين : وماذا يبغى أيضاً ؟

باروليس : أن تستأذنى الملك فى الحال ، وتجعلى هذه العجلة من تلقاء نفسك ، وثمرة تفكيرك ، معززة بأسبابه ، وبما ترين من حسن المعذرة ، التى تظهر معها حقيقية .

هيلين : وبماذا يأمر أيضاً .

باروليس : أن تنتظرى بعد الحصول على الإذن ما يطلبه إليك .

هيلين : إننى منتظرة فى كل شىء أوامره .

باروليس : سأبلغه ذلك .

(يخرج)

هيلين : أرجو أن تأتى يا هذا .

(تخرج)

---

(٣٣) أى حسن التغذية ، والباقى محذوف ، وهو «ولكن سىء التربية» .

المشهد الخامس

حجرة أخرى فى القصر

(يدخل لافيه – وبرترام)

لافيه : ولكنى أرجوك يا مولاى ألا تعتقد أنه جندى .

برترام : بل إنه لكذلك يا مولاى ، وقد ثبتت بالشواهد والأدلة بسالته .

لافيه : لقد جاءتك هذه الشواهد من كلامه هو وأقواله .

برترام : إلى جانب أدلة أخرى وشهادات صحيحة .

لافيه : إذن لم تكن شواهدى دقيقة ، لقد حسبت هذه القنبرة درَسه (٣٤) .

برترام : أؤكد لك يا مولاى أنه على علم واسع ، وأن شجاعته لا تقل عن علمه .

لافيه : لقد أخطأت إذن فى حق حنكته ، وتعديت على شجاعته ، فأنا إذن مقترف خطيئة مُجتَرِحٌ إثماً ، ما دمت لا أجد فى نفسى نزوعاً إلى تكفير ، ولا رغبة فى ندامة ، ها هو ذا قادم ، فأرجوك أن تصالحنا ، وعلىّ أنا أن أتابع الصلح بالمودة .

---

(٣٤) القنبرة طائرة غردة والدرسة باغمة لا تشدو ، أى كنت أظنه لا شىء ، فإذا هو على النقيض .

(يدخل بارولس)

بارولس : ستسير الأمور كما تريد يا سيدى .

لافيه : قل لى من يكون حائكه . .

بارولس : سيدى ؟ .

لافيه : إننى أعرفه حق المعرفة ، إنه عامل ماهر ، وحائك بارع .

برترام : هل ذهبت إلى الملك .

بارولس : نعم .

برترام : وهل هى الليلة راحلة . .

بارولس : إذا شئت .

برترام : لقد كتبت رسائلى ، وحزمت أمتعتى ، وأمرت بإعداد جيادنا ، والليلة حين أملك العروس ، أنتهى منها قبل أن أبدأ .

لافيه : إن المسافر الأريب يستمع إليه فى آخر العشاء ، يكذب فى ثلاثة أمثال ما يرويه ، ويتكلم عن حقيقة معروفة ليغطى بها ألف عبارة تافهة فيجب ألا يسمع إلا مرة وأن يضرب ثلاث مرات ، نجاك الله أيها القائد .

برترام : هل وقع جفاء بين مولاى وبينك يا سيدى ؟

بارولس : لست أدرى كيف استحققت أن أقع لديه فى غير موقع الرضا .

لافيه : أنت الذى حاولت الوقوع بحذائك ومهازك وكل شىء

لديك ، كالذى قفز فى الحلوى ، وأنك لتفضل أن تخرج منها على أن تبرر بقاءك فيها .

برترام : لعلك وهمت فيه يا مولاى .

لافيه : وسأظل كذلك أبداً وإن كنت قد أجبت طلبه إلى الملتقى يا مولاى ، وصدقنى ليس فى هذه البندقية الخفيفة شىء ، إن روح هذا الرجل هى ثيابه ، فلا تركن إليه فى الأمور الخطيرة ، فقد اقتنيت هذه الحيوانات الأليفة وعرفت طباعها ، وداعاً يا سيد ، لقد تكلمت فى حقك خيراً مما استحققت أو مما ستستحق منى ، ولكنا مضطرون أن نفعل الخير لنقاوم الشر .

(يخرج)

بارولس : أقسم أنه لمولى تافه .

برترام : لا أظن ذلك .

بارولس : ألا تعرفه .

برترام : بلى ، أعرفه حق المعرفة ، وهو معروف على الأفواه بسمعة حسنة ، ها هى ذى الرباط المقيد رجلى قادمة .

(تدخل هيلين)

هيلين : لقد تكلمت يا سيدى كما أمرتنى مع الملك واستأذنته فأذن فى هذا السفر العاجل ، ولكنه يريد أن يتحدث إليك حديثاً خاصًّا .

برترام : سأمتثل لأمره ، لا تعجبى يا هيلين لهذا المسلك الذى لا يناسب الظرف الحاضر ، ولا يلائم عروسين فى يوم زفاف ، ولا يتفق وما تنتظرينه منى خاصة ، لأننى لم أكن متأهباً له ، ولا مستعدًّا ولا مترقباً ، فلا عجب إذا رأيتنى مرتبكاً مضطرباً ، وهو أمر يدفعنى إلى التوسل إليك أن تبادرى بالعودة إلى البيت لتفكرى فى سر توسلى إليك على هذا النحو وباعث تضرعى ، ولا تسأليني فإن ما لدىّ من الأسباب أقوى مما يبدو لك ، ورحيلى ينطوى على أمر أعظم من أن ينكشف لعينيك وأجل من أن يتراءى لك لأول وهلة ، وأنت لا تعرفين عنه شيئاً ، واحملى هذا إلى أمى (يعطيها رسالة) وسينقضى يومان قبل أن أراك ، ولهذا أتركك لحكمة تصرفك .

هيلين : سيدى ، لست واجدة ما أقول إلا أننى خادمتك المطيعة .

برترام : حسبك ، حسبك ، لا تزيدى .

هيلين : وسأظل أبحث كيف أخفقت كواكب زواجى فى أن تتفق مع كواكب سعدى .

برترام : دعى عنك هذا ، إننى فى عجلة بالغة ، وداعاً ! ، أسرعى إلى البيت .

هيلين : أستميحك معذرة يا سيدى .

برترام : ماذا تريدين أن تقولى ؟

هيلين : إننى لست للنعمة التى أملكها مستحقة ، ولا أجرؤ أن أقول

إنها نعمتى ، وإن كانت كذلك ، ولكنى كاللص الخائف المتهيب أود أن أسرق ما هو شرعاً مالى ، وأختلس ما هو فى نظر القانون ملك يمينى .

برترام : ما الذى تريدين ؟

هيلين : شيئاً ، يسيراً ، بل فى الواقع لا شىء ، ولست أقول لك يا مولاى ما أريد ، إن الغرباء والأعداء يفترقون ولا يتبادلون القبلات .

برترام : أرجوك ألا تتربى ، بل أسرعى إلى الخيل .

هيلين : لن أعصى لك أمراً يا مولاى الكريم ، أين رجالى الآخرون يا سيدى ، الوداع .

(تخرج)

برترام : اذهبى إلى البيت الذى لن أعود يوماً إليه ، ما استطعت أن أمتشق حساماً ، وأسمع طبولاً ، هيا بنا . . ولنهرب .

بارولس : شجاعة وثباتاً . .

(يخرجان) .

الفصل الثالث

المشهد الأول

(طبول – يدخل دوق فلورنسا والأميران الفرنسيان مع جمع من الجنود)

الدوق : لقد سمعتم الآن تفصيل الأسباب الأساسية التى دعت إلى قيام هذه الحرب ، واقتضت أحداثها الجسام إراقة غزير الدماء ، واستثارة العطاش إليها والظماء .

الشريف الأول : إن هذه الأسباب يا مولاى من جانبكم شريفة مقدسة ، ومن جانب عدوكم منكرة دنسة .

الدوق : ولهذا أنا لى عجب بالغ من ابن عمنا ملك فرنسا كيف يصم أذنيه فى أمر عادل كهذا عن سماع طلبنا المعونة ، والاستجابة لنداء النجدة .

الشريف الأول : أيها المولى الكريم ، لست أعرف الأسباب التى بنت عليها دولتنا خطتها ، ولكنى كرجل عادى لا خبرة له بالسياسة أحاول بالحدس الضعيف وحده إدراك اتجاهات المجلس وأوضاعه المستغلقة على الأفهام ، كأوضاع الكواكب ، وحركات الأجرام ، ولهذا لا أجرؤ أن أقطع فيها برأى ، إذ وجدتنى أحياناً كثيرة مخطئاً فى حدسى وتخمينى كلما بدا لى أن

أفعل ذلك .

الدوق : لتكن مشيئته .

الشريف : ولكنى على يقين أن الشباب ممن هم على شاكلتنا ، والذين أتخمتهم الدعة ، وسئموا الإسراف على أنفسهم ، سيهرعون إلى هنا انتجاعاً للدواء من الداء .

الدوق : مرحباً بهم يوم يجيئون ، وسينالون كل ما نستطيع أن نحبوهم به من شرف وتمجيد ، إنكم لتعرفون مكانكم حق المعرفة ، فإن خلت أماكن أفضل وأعز ، فمن أجلكم تخلو لتملأ بكم وتعتز ، إلى الميدان غداً .

(يخرج – طبول)

المشهد الثانى

حجرة فى قصر الكونتسة

(تدخل الكونتسة والمهرج)

الكونتسة : لقد جرى كل شىء كما كنت أريد أن يجرى ، إلا أنه لم يأت معها .

المهرج : يميناً يا سيدتى إننى أحسب مولاى الفتى فى حزن شديد .

الكونتسة : أرجو أن تخبرنى عن الذى جعلك تظن هذا الظن .

المهرج : إنه لينظر إلى حذائه ويغنى ، ويصلح من الطرف الأعلى لهذا الحذاء ويغنى ، ويسأل أسئلة ويغنى ، وينظف أسنانه ويغنى ، وأعرف رجلاً هذه صفته باع قصراً منيفاً بأبخس الأثمان .

الكونتسة : دعنى أرى ماذا يقول فى كتابه ومتى ينتوى مآباً .

المهرج : لم أعد أطيق الوصيفات ، منذ كنت فى البلاط ، إن سمكنا وحيتاننا ونساءنا فى الريف ، يختلفن كل الاختلاف عن جوارى البلاط وطعامه ، إن مخ «كيوبيدى» انشرخ وانفدخ ، فبدأت أحب كما يحب العجوز المال ، ولا معدة له[1] .

---

(١) أى لا رغبة لديه ولا شهوة حتى ينفق المال فى إشباعها وإشارته إلى «مخ كيوبيد» مع =

الكونتسة : ماذا أرى هنا ؟

المهرج : حتى هذا ترينه فيه

(يخرج)

(الكونتسة تقرأ الكتاب)

الكونتسة : « لقد أرسلت إليك كنَّة ، شفت الملك وأضاعتنى ، لقد تزوجتها ولكنى لم أبن بها ، وأقسمت ألا أفعل أبداً ، وستسمعين أننى هربت ، فاعلمى النبأ قبل أن تتلقيه ، فإذا كان لهذا العالم كتابة من العرض ، فسأبتعد فيه إلى أقصى حد ، وتقبلى احترامى . . ولدك المنكود . .

برترام »

ليس هذا عملاً صالحاً أيها الفتى الجموح المطلق العنان ، أتخسر رضا ملك كريم وتستهدف لجام غضبه ، لازدراء فتاة بلغت من الفضيلة حداً ، لا يزدريه رب جاه ولا صاحب سلطان[٢] .

(يدخل المهرج)

= نسبة كيوبيد إليه فى قوله «كيوبيدى» معناها أن إله حبه بدأ يضطرب مخه ، ويغريه بالحب ، وقد عبر هنا عن «ايزابل» أى الخادم أو الجارية «بالوصيفات» .

(٢) الخطاب هنا موجه منها إلى ابنها ، فهى ترى هذا السلوك منه حمقاً ، إذ كيف يتعرض لغضب الملك ، لمجرد احتقاره فتاة لا تستحق الاحتقار ، لفضلها المتناهى الذى يجعل الملوك ينظرون إليها بعين الإكبار .

المهرج : مولاتى ، نبأ خطير ، بين جنديين ومولاتى الصغيرة .

الكونتسة : ما الذى جرى ؟

المهرج : لا تراعى . . إن فى النبأ بعض ما يرضى ، نعم بعض ما يرضى ، إن ابنك لن يقتل بالسرعة التى كنت أعتقدها .

الكونتسة : ولماذا يقتل ؟

المهرج : هذا ما أقوله أنا يا مولاتى إذا هو هرب ، وقد سمعت عن هربه ، إن الخطر كل الخطر فى البقاء ، ففيه يضيع الرجال وإن كانوا يأتون بالأطفال ، هاهم أولاء قادمون ليزيدوك علماً بما جرى ، أما أنا فلم أسمع إلا بهرب فتاك .

(يخرج)

(تدخل هيلين والشريفان)

الشريف الثانى : سلاماً أيتها السيدة الكريمة .

هيلين : مولاتى ، إن مولاى ذهب ، ولن يعود أبداً .

الشريف الأول : لا تقولى هذا .

الكونتسة : أرجوكما أيها السيدان صبراً على ورفقاً بى ، لقد تعاقب على نفسى من الأفراح والأتراح ما جعلنى لأول مطالعها وبوادرها أحس ضعف المرأة وخورها ، أرجوكما أن تخبرانى أين ولدى . .

الشريف الأول : لقد ذهب ليخدم دوق فلورنسا وقد التقينا به هناك ، لأننا جئنا ، وسنعود إليها بعد تأدية مهمة لنا فى البلاط .

هيلين : أنظرى يا مولاتى إلى كتابه ، إنه جواز سائل[٣] ، فهو يقول لى فيه «إذا استطعت أن تظفرى بالخاتم الذى فى إصبعى والذى لن يخرج منه إلى الأبد ، وإذا أمكنك أن تقدمى إلىّ ولداً من أحشائك وأصلابى ، أكون أنا له الوالد ، وهو لى الولد ، فلتسمنى يومئذ لك بعلاً ، وإلا فلا إلى الأبد . . يا لها من كلمات مروعة . .

الكونتسة : هل أنتما اللذان جئتما بهذا الكتاب أيها السيدان . .

الشريف الأول : أى نعم يا سيدتى ، ونحن لما حوى آسفان لما نقلناه .

الكونتسة : أرجوك أيتها السيدة أن تخففى من حزنك ، وتسرى قليلاً عنك ، لأنك إذا احتكرت الأحزان كلها لنفسك ، تركتنى منها خلية ، بغير نصيب ، لقد كان لى ابناً ، ولكنى ماحية اسمه من دمى ، وأنت وحدك كل ولدى . . أتقولان إنه ذهب إلى فلورنسا ؟ .

الشريف الأول : أجل يا سيدتى .

الكونتسة : ليكون جندياً ؟

الشريف الأول : هذا هو مقصده النبيل ، وثق أن الدوق سيخلع عليه كل الشرف الذى يستحقه .

---

(٣) هو جواز تعطيه البلدية للمتسولين لكى تجيز لهم به طلب الصدقات ، وتعين لهم الأحياء التى تسمح لهم بالتسول فيها والتنقل من ناحية إلى أخرى ، والمعنى ظاهر ، فهى تشبه الكتاب من شدة حزنها بهذا الجواز الذى لا يعطى إلا للسائلين والمشردين .

الكونتسة : أعائدان إلى هناك ؟

الشريف الثانى : نعم يا سيدتى على جناح السرعة .

هيلين : (تقرأ) « لن يكون لى بفرنسا شأن ، ما بقى لى فيها زوج » ، إنه لقول أليم . .

الكونتسة : أوجدت هذا أيضاً فى الكتاب ؟

هيلين : نعم يا مولاتى .

الشريف الثانى : لعلها جرأة من يده ، على ما لم يقره قلبه لحسن الحظ .

الكونتسة : لا شأن له بفرنسا ، ما بقى له فيها زوج . . « ليس له هنا من ولى ولا عزيز غيرها ، إنها الخليقة بمولى فى خدمته عشرون فتى من أمثاله شراسة ، يقولون لها فى كل ساعة « مولاتى » ومن كان معه ؟

الشريف الثانى : خادم واحد وسيد عرفته فى وقتٍ ما .

الكونتسة : أليس هو بارولس ؟

الشريف الأول : بلى يا سيدتى الكريمة ، إنه هو .

الكونتسة : مخلوق فاسد ، امتلأت بالشر نفسه ، أفسد بالتحريض طهارة ابنى وأخلاقه الكريمة .

الشريف الأول : أجل أيتها السيدة الكريمة ، إن لهذا المخلوق أسوأ الأثر فى نفس ولدك الذى يقدره كثيراً ويحسن الرأى فيه .

الكونتسة : مرحباً بكما أيها السيدان ، وأرجو أن تقولا لولدى حين تريانه : إن سيفه لن يكسب الشرف الذى خسره ، وسأرجو

إليكما أن تحملا إليه منى كتاباً .

الشريف الأول : نحن فى خدمتك يا سيدتى فى هذا وفى كل ما تأمرين به من الشئون الهامة .

الكونتسة : أستغفر الله ، ولن تكونا فى خدمتى إلا إذا أذنتما لى بأن أقوم بخدمة أؤديها لكما من واجب الوفادة والتكريم .

(تخرج هى والشريفان)

هيلين : « لن يكون لى بفرنسا شأن ، ما بقى لى فيها زوج . . » ، لن يكون لك فى فرنسا ياروسيون زوجة ، لن يكون لك أحد ياروسيون فى فرنسا ، وإذن سيعود إليك كل ما كان لك فيها ، واهاً لك يا مولاى ، أأنا التى تطردك من وطنك ، وتعرض طراءة بدنك لأحداث الحرب وأهوالها ، وهى لا تبقى ولا تذر ؟ أأنا التى تبعدك عن البلاط ومباهجه ، حيث الغيد يثأرنك بأعينهن والحسان يرسلن إليك سهام لواحظهن ، لتكون هدفاً لقذائف النيران ، المنبعثة وسط ذوائب الدخان ؟ أيتها المقاذيف الرصاصية التى تمرق فى مثل سرعة الشهب ، انطلق غير مسددة ، وانبعثى غير مصوبة ولا مؤكدة ، ومزقى الفضاء ودوى فى أرجائه مخترقة ، ولا تمسى مولاى بسوء ، وكل من يسدد الرمية إليه ، أنا غريمته ، وكل من يرسل الطلقة إلى صدره ، أنا ملاحقته ، ولئن لم أقتله ، كنت السبب فى قتله ، وعلة منيته ، إنى لأوثر أن ألقى الأسد وهو

يزأر من فرط الجوع ، وأن تتناهبنى مجتمعة كل ما فى العالم من مصائب ، وما فى الخلقية من خطوب ... كلا ، ياروسيون ، عد إلى وطنك ، من حيث لا تصيب من الشرف بتعرضك للخطر غير جرح وندبة ، ولكن قد يكون الهلاك نصيبك والخسارة ، لأذهب أنا ، ما دام مقامى هنا ، هو الذى يحول دون رجعاك ، أفأقيم هنا لتظل أنت بعيداً ، وعن وطنك مصروفاً مذوداً ؟ كلا ، ثم كلا ! ولو كان نسيم الجنة على هذا البيت مطلقاً هابًا ، والملائكة فيه حاشدين ، سأذهب لعل نبأ فرارى ينزل على سمعك مواسيًا ، ويطالع أذنيك معزيًا أيها الليل أقبل ، لتختم النهار ، لأنى مع الظلام المسترق ، سأسترق الخطى هاربة ، أنا اللصة المسكينة . .

(يخرج)

المشهد الثالث

أمام قصر الدوق

(طبول – يدخل دوق فلورنسا وبرترام وضباط وجنود – وبارولس وغيرهم)

الدوق : أنت قائد فرساننا ، وإن لنا لأملاً كبيراً فيك ، وواضعون أصدق حبنا وثقتنا بمستقبلك الباهر ، وغدك المجيد .

برترام : مولاى . إنه لعبء فادح تنوء به قواى ، ولكنى سأجتهد فى حمله ، لمرضاتك إلى أبعد حد .

الدوق : إذن انطلق ، وليخفق التوفيق فوق هامتك ، وليكن الحظ السعيد فى خدمتك .

برترام : أى إله الحرب ، إننى من اليوم سالكٌ نفسى فى أجنادك فحقق أملى ، واستجب لما فى خاطرى ، حتى أثبت أننى لطبولك محب ، وللحب كاره .

(يخرجون)

المشهد الرابع

حجرة فى قصر الكونتسة

(تدخل الكونتسة ورئيس الخدم)

الكونتسة : واحزنى ! ، هاك كتابها ، ألم يكن فى إمكانك أن تعرف من إرسالها لى خطاباً ما هى فاعلته قبل أن تقدم فعلاً عليه ؟ اقرأ كتابها مرة أخرى .

رئيس الخدم : (يتلو الكتاب) «إننى ذاهبة لأحج مزار سان جاك[٤] بعد أن أزرى بحمى الطموح وأستنكر ، وسأسعى إليه أطأ الأرض حافية القدمين ، معاهدة الله على التكفير عن خطاياى ، ضارعة إليه أن يرد مولاى العزيز ، وولدك المحبوب ، من حومة الحرب الدامية إلى وطنه بسلام وعافية ، قانعة من بعيد بتقديس اسمه ، مخلصة الدعاء ، صادقة النداء ، سائلة إياه الصفح عما كبدته من متاعب ، وجشمته من مكاره ونوائب ، فأنا زوجه المزدراة ، قد فعلت ما فعلت جونو[٥]

---

(٤) ضريح مشهور فى بلدة تدعى كومبو ستللا فى أسبانيا ، ولا يعرف أحد ضريحاً كهذا فى إيطاليا حيث تقع حوادث الرواية ، وسواء أكانت هيلين قد اعتزمت حقًّا أن تحج إلى ستياجو أم لا فإنها ذهبت أولاً إلى فلورنسا لغرض آخر .

(٥) زوج هرقل التى أرهقته وعذبته كثيراً .

ببعلها العظيم ، إذ نزعته من صحابه فى البلاط وخلطائه ، وأسلمته للمقام بين خصومه وأعدائه ، فى مضارب القتال وشدة بلائه ، حيث المنايا رصد للشجعان ، وهو أكرم وأجل من أن يستهدف لها ويكون لى ، وأنا من الموت مفتديته ، ولمقدم المنون ملاقيته ، لينطلق هو بالحياة ناجياً . . »

الكونتسة : يالله ما أشد اللذعات فى أرفق الكلمات ، وما أحد السنان فى لغة الحنان ، أى رينالدو ، ما عهدتك يوماً أشد افتقاراً إلى الحكمة منك اليوم ، إذ تركتها تفر ، ولو أنى تحدثت إليها ، لاستطعت أن أثنيها عن نيتها ، ولكنها حالت دون ذلك بفرارها .

رئيس الخدم : مغفرة يا مولاتى ، لو أنى قدمت إليك هذا الكتاب فى الليلة البارحة لكان من الجائز اللحاق بها ، ولكنها تقول إن تعقبها ذاهب سدى .

الكونتسة : أى الملائكة مبارك هذا الزواج الغادر ! ، إنه لن يحالفه التوفيق ما لم تنجه دعواتها الذاهبة إلى السماء مسموعة ، صاعدة إلى الله مقبولة ، من غضب العدالة الإلهية ، اكتب يا رينالدو ، اكتب إلى هذا الزوج الذى يستحق زوجته ، ودع كل كلمة فى مثل زنة فضلها ، الذى استخف به ، وصف له بدقة حزنى الشديد ، وإن كان به مستهيناً ، وأوفد إليه أنسب الرمل ، لعله حين يسمع برحيلها عائدًا إلينا ،

وإنى لأرجو حين تعلم بما جرى أن تبادر إلى الأوبة ، يحدوها حبها الطاهر ، فلست أدرى أيهما أعز عندى وأغلى قدراً ، وأنا العاجزة عن التفرقة ، هلم اكفل للرسول حاجته ، إن قلبى لمحزون ، وسنى واهنة متقدمة ، والحزن يطلب دمعاً ، والأسى يقتضى بالكلام متنفساً .

(يخرجان)

المشهد الخامس

خارج أسوار فلورنسا

(صوت طبول من بعيد)

(تدخل أرملة عجوز من نساء فلورنسا وابنتها ديانا وفيولنتا وماريانا وغيرهن من أهل المدينة)[٦]

الأرملة : تعالين ، حتى لا نحرم من المشاهدة إذا هم اقتربوا من المدينة .

ديانا : يقولون إن الكونت الفرنسى قام بعمل حربى جليل .

الأرملة : وإنه أسر القائد الأكبر وبيده ذبح شقيق الدوق . . لقد ذهب جهدنا سدى فهاهم أولاء يتخذون طريقاً آخر غير هذا الطريق ، ألا تسمعن دق الطبول من مكان بعيد .

ماريانا : لنعد من حيث أتينا قانعات برواية الخبر ، وأنت يا ديانا احذرى هذا الأمير الفرنسى ، وامسكى عليك حفاظك ، إن شرف الفتاة فى نقاء اسمها ، وحسن سمعتها ، وليس ثمة شىء أشرف من العفاف ، ولا أغلى من الطهر والنقاء .

الأرملة : لقد قلت لجارتنا كيف راح سيد من رفاقه يتعلق بأذيالك .

ماريانا : أعرف هذا الوغد لعنة الله عليه ، إنه يدعى بارولس ، وهو ضابط قذر ، دأب على إغواء الأمير الشاب والوسواس فى

---

(٦) سيلاحظ القارئ أن بين الأشخاص هنا فتاة تدعى «فيولنتا» ولكن ليس لها فى المشهد دور ما . والظاهر أن شكسبير كان فى بدء الأمر يريد أن يسمى ابنة الأرملة «فيولنتا» ولكنه عدل فسماها «ديانا» .

سمعه ، فاحذريهما يا ديانا ، ولا تستمعى إلى وعودهما وكيدهما وأقسامهما ومراوداتهما ، وسائر ما تصطنعه الشهوات من وسائل وأدوات ، لأنها وعود كاذبة ، وأمانى باطلة ، فكم من فتاة انخدعت بها ، وكان الشقاء جزاءها ، وراحت عبرة لمن تعتبر ، وشر ما فى الأمر أن الشقاء وسوء المغبة الرهيب الذى يؤدى إليه فقد العذارى شرفهن لا يحول برغم هذا بينهن وبين تكرار المأساة ، بل إنهن ليقعن فى الشراك التى تنصب لهن ، وما هذه الحبائل إلا أشبه بالفروع والأفنان التى تجتذب الأطيار ، وتحتبلها فى القنيصة ، وأرجو ألا أحتاج إلى إسداء نصيحة أخرى إليك ، بل أملى أن يصونك عفافك ، فتظلى كما أنت ، ولئن لم يبد للعين خطر ، فقد تفقد العذراء الحياء ، ويذهب عنها الخفر .

ديانا : لن أدعك تخافين على ، فاطمئنى .

(تدخل هيلين فى زى الحجاج)

الأرملة : أرجو ذلك ، انظرن ، ها هى ذى حاجة قادمة ، إننى أعرف أنها ستقيم فى بيتى ، إن هؤلاء الحاجات ينبه بعضهن بعضاً ، واحدة ترسل الأخرى ، سأسألها . . يا حاجة سلاماً لك ، إلى أين ؟

هيلين : إلى مزار القديس جاك الأكبر ، نبئينى بالله عليك أين ينزل الحجيج .

الأرملة : فى سان فرنسيس هنا بجوار باب المدينة .

هيلين : أهذا هو الطريق إليه ؟

الأرملة : نعم هو وأيم الله (تسمع مواقع أقدام الجنود من بعيد) . . . ألا تسمعن . إنهم قادمون من هذا الطريق ، هلا انتظرت يا حاجة ريثما يأتى الجنود فأسير بك إلى حيث تأوين ، لأنى أعرف ربة المأوى ، فهى صورة منى .

هيلين : أأنت هى ؟

الأرملة : إذا رضيت بذلك يا حاجة .

هيلين : شكراً لك ، وسأنتظر حتى يتسع لك الوقت .

الأرملة : أظنك قادمة من فرنسا ؟

هيلين : منها أتيت .

الأرملة : ستشهدين هنا فتى من أبناء بلدك أتى أعمالاً مجيدة .

هيلين : وما اسمه إذا سمحت . .

الأرملة : الكونت روسيون ، أتعرفين أحداً بهذا الاسم . .

هيلين : لا أعرفه إلا بالسماع ، فقد سمعت أطيب الثناء عليه ، ولكنى لا أعرف وجهه .

ديانا : مهما يكن من أمره ، وهو يعد هنا من أظرف الناس ، ويقال إنه فر من فرنسا لأن الملك أرغمه على الزواج بمن لا يحب . . أتظنين الأمر كذلك ؟

هيلين : هذه هى الحقيقة بعينها ، إننى أعرف زوجه . .

ديانا : إن فى خدمة الكونت سيداً يروى السوء عنها .

هيلين : وما اسمه ؟

ديانا : مسيو بارولس .

هيلين : آه . . إننى متفقة معه ، فهى من حيث الفضل ، وإذا قورنت بقدر الكونت العظيم وشأنه ، أقل كثيراً من أن يذكر اسمها بجانبه ، وكل ما فيها من خير حرصها على عفافها ، فلم أسمع عنها من هذه الناحية شائبة .

ديانا : وآأسفا لهذه السيدة المسكينة ، إنه لرباط أليم أن تكون زوجاً لسيد يكرهها .

الأرملة : إننى أراها مخلوقة طيبة فاضلة ، ومهما تكن فإن فؤادها لمحزون بلا ريب ، وفى شجن بالغ ، إن هذه الشابة تستطيع أن تنتقم لها إذا شاءت .

هيلين : ماذا تعنين بقولك هذا ؟ . . أترى الكونت الغزل يراودها لمقصد غير شريف ؟

الأرملة : نعم ، إنه ليعرض عليها كل ما فى مكنته أن يعرض ، ليفسد عليها شرف العذراء ، ولكنها تتقيه ، وعلى حذر منه ، منتبهة إلى الذود عن شرفها .

(طبول وأعلام ، يدخل الكونت روسيون وبارولس وكتيبة من جيش فلورنسا)

ماريانا : حمتها الآلهة وعاذتها منه .

الأرملة : ها هم أولاء قد أتوا ، هذا أنطونيو أكبر أبناء الدوق ، وهذا إسكالوس .

هيلين : وأيهم الفرنسى ؟

ديانا : ذاك صاحب الريشة ، إنه لأشجع الشجعان ، ليته كان لزوجه محباً ، ولو وفى لكان أحسن البعول ، أليس هو بالسيد الجميل ؟

هيلين : إنه يروقنى كثيراً .

ديانا : ولكن من دواعى الأسف أنه ليس مخلصاً ، وها هو ذا الوغد الذى يقوده إلى تلك الأماكن ، لو أننى كنت زوجه لوضعت السم لهذا المجرم الشرير .

هيلين : أيهم هو ؟

ديانا : ذلك القرد المقفع الكثير الثياب ، لماذا يبدو مكتئباً ؟

هيلين : لعله جرح فى المعركة .

بارولس : أنفقد طبولنا ! حسن .

ماريانا : إنه غضبان مغيظ من شىء ما ، انظرن إنه قد لمحنا .

الأرملة : لعنة الله عليك .

ماريانا : وعلى تحيتك أيها الديوث .

(ينصرف برترام وبارولس والضباط والجنود)

الأرملة : لقد مر الجنود فهلمى أيتها الحاجة ، أذهب بك إلى حيث تنزلين ، ففى بيتى الساعة من طلاب التوبة والتكفير أربعة

أو خمسة من الحجيج إلى مزار سان جاك .

هيلين : أشكرك بكل خضوع ، فهلا تكرمت ياربة الدار وهذه العذراء الرقيقة بقبول تناول الطعام معنا الليلة وستكون النفقة والشكر عليّ ، وجزاء آخر سأهب هذه العذراء بعض وصفات طيبة ، خليقة بالذكر .

الأرملة وماريانا : نتقبل هذه المكرمة شاكرين .

(ينصرفن)

المشهد السادس

(يدخل الكونت روسيون والشريفان الفرنسيان)

الشريف الثانى : أى والله يا مولاى الكريم جربه ودعه يمضى فى هواه .

الشريف الأول : وإذا لم تجده يا مولاى مخلوقاً لا قيمة له ولا قدر ، فأسقطنى من عينيك ، ودع عنك احترامى .

الشريف الثانى : وحياتى يا مولاى إنه « فقاعة » .

برترام : هل تظنان أننى كنت مخدوعاً فيه ؟

الشريف الثانى : صدقنى يا مولاى إنه فى اعتقادى ، بعد معرفتى الشخصية به ، وبدون حقد أو موجدة فى نفسى عليه ، كأنه أحد أقاربى ، جبان بادى الجبانة ، كذاب لا حدود لكذبه ، حنانث فى كل ساعة بأيمانه ، نكاث فى كل لحظة بوعوده ، لا سجية فيه أن تقبله فى خدمتك .

الشريف الأول : يخلق بك أن تعرفه على حقيقته ، لئلا تسكن إلى فضل ليس له منه حظ ، فيخذلك فى موطن جلل ، أو أمر يستوجب خطره البالغ الثقة والاطمئنان .

برترام : وددت لو أننى عرفت فى أى أمر خاص أجربه .

الشريف الأول : ليس ثمة سبيل إلى تجربته أفضل من أن تكلفه أن يحمل الطبلة

فى القتال[٧] ، كما سمعته يتحدث عن ثقة بأنه لا يتردد فى حملها .

الشريف الثانى : وسأفاجئه أنا وجماعة من الجنود الفلورنسيين ، ممن أثق بأنه لا يميز بينهم وبين الأعداء ، فنشد وثاقه ، ونعصب عينيه ، حتى ليذهب الظن به إلى أنه محمول إلى مضاربهم ، على حين نأتى نحن به إلى خيامنا ، وما عليك يا مولاى إلا أن تكون حاضر أمرنا ، فإذا لم تشهده عندئذ فى سبيل النجاة بحياته ، ودافع الخوف الخسيس ، يعرض من تلقاء نفسه الغدر بك ، وإفشاء كل ما فى جعبته من الأنباء عنك ، وحلف الأيمان المغلظة على صدق قوله ، إنه إن لم يكن صادقاً فى قوله غضب الله عليه ، فلا تركن بعد اليوم إلى رأيى ولا تثق بحكمى وتقديرى .

الشريف الأول : حبًّا فى الضحك ، ورغبة فى التسلية ، دعه يحضر طبلته ، ما دام هو القائل إنه البارع الحاذق فى حملها ، لترى يا مولاى مبلغ براعته فى ذلك ، ومدى مقدرته ، وتتبين إلى أى حد ستذوب هذه القطعة من المعدن المزيف ، فإذا لم تضربه حينئذ ضرباً مبرحاً ، فلا شىء بعدئذ ينتزع منك ميلك لهذا الإنسان .

---

(٧) فى كل جماعة من الجنود ، كسرية أو كتيبة ، علم وطبلة ، وخسارة أحدهما فى المعركة عار شديد .

(يدخل بارولس)

الشريف الثانى : حبًّا فى الضحك ، ورغبة فى الفكاهة ، لا تَحُل دون شرف مقصده ، دعه يستنقذ طبلته ، مهما يكن الأمر .

برترام : كيف الحال الآن يا سيد . . إن هذه الطبلة تخز فى جسدك ، وتثقل على صدرك .

الشريف الأول : إنها كالجدرى ، فدعها ، إنْ هى إلا طبلة .

بارولس : أتقول إنْ هى إلا طبلة ، هى طبلة نعم ذهبت خساراً ، وجلبت عاراً ، لقد كانت القيادة بارعة حقًّا فى الهجوم بخيلنا على جَناحيْنا . وتمزيق صفوف جنودنا بأيدينا .

الشريف الأول : لا ملامة على القيادة ولا معاب ، لقد كانت نكبة من نكبات الحرب يعجز قيصر نفسه عن منعها ، لو أنه كان فى مركز القائد وموضعه .

برترام : لا يمكن أن نتهم فوزنا ، ونعيب نصرنا ، نعم لقد مسنا بعض الشين من فقداننا هذه الطبلة ، ولكن لا سبيل إلى استردادها .

بارولس : لقد كان من الجائز أن نستردها .

برترام : كان من الجائز ، ولكن لا سبيل إليه الآن .

بارولس : لابد أن تُسترد ، ولولا أن حسن البلاء قلما ينسب إلى صاحبه ومؤتيه ، لاستردت هذه الطبلة أو غيرها ، وإنْ قضيت فى هذه السبيل وتخطفنى الردى .

برترام : هلم إذن ، إذا كانت فى نفسك يا سيد رغبة ، وإذا كنت ترى أن خبرتك بفنون القتال كفيلة برد هذه الشارة الرائعة من شارات الشرف إلى مكانها ، هلم تقدم عظيماً فحاول استعادتها ، ولك على أن أشهد لك بحسن البلاء ، وعلو المكارم ، وجميل الأثر ، فإذا مضيت فى هذا الأمر موفقاً ، فسوف ينوه الدوق بك ، ويشيد بذكرها ، ويزيدك من فضله ، قدر ما يليق بعظمتك ، ويناسب مقامك ، ويجزى كل ذرة من قدرك .

باورلس : قسماً بيد جندى إنى لفاعل .

برترام : ولكن لا ينبغى أن تنام الآن عنها .

باورلس : سأحاولها فى هذا المساء ، أما الساعة فسأتدبر الأمر وأتروى فيه ، وأنادى إلى شجاعتى وأنا المطمئن الواثق وأعد العدة للردى ، وأوطن النفس على لقائه ، وعند منتصف الليل ترقب أنباءً عنى وانتظر أخباراً .

برترام : هل أجرؤ على إبلاغ سمو الدوق أنك معتزم المضى فى هذا الأمر ؟

باورلس : لا أعرف يا مولاى كيف سيوافينى النجاح ، ولكنى على المحاولة مقسم ، وببذل الجهد مرتبط .

برترام : أعرف أنك باسل ، وبمدى جنديتك شاهد . . إلى الملتقى .

بارولس : لا أحب الإكثار من القول ، ولا أنا فى الكلام الكثير راغب .

(يخرج)

الشريف الثانى : لا يحب كثرة الكلام إلا كما يحب السمك الماء ، أليس هذا المخلوق يا مولاى عجيباً ، فى هذا الاطمئنان الذى يبديه إلى إتيان عمل كهذا ، وهو يعلم أنه أمر هيهات أن يتم ؟ أليس عجيباً منه أن يلعن نفسه ليفعله ، وكان خيراً له أن يكون ملعوناً ، من أن يفعله .

الشريف الأول : إنك لا تعرفه يا مولاى كما نعرفه ، إنه بلا شك لا يفتأ يتسلل إلى قلب إنسانٍ ما ويسترق الخطى إلى رضاه وحظوته ، ويظل أياماً متجنباً كثيراً من الأشياء التى تكشفه ، متحامياً جهده ما يفضح أمره ، ولكنك حين تكشفه ، تملك بعدئذ أن تفضحه .

برترام : ما الذى يجعلك تظن أنه لن يقدر على شىء مما يتطوع لإتيانه ، ويتقدم بنفسه إلى إنجازه بكل ما فى إمكانه ؟

الشريف الثانى : ليس هو على شىء فى هذا العالم بقادر ، ولكنه عائد بأكذوبة يختلقها وشفاعة يبتدعها ، ويلقى إليك بأكذوبتين أو ثلاث مجتملات أو مرجحات ولكنا قد أجهدناه أو كدنا ، وسترى الليلة سقطته ، وهو فى الحق ليس باحترامك جديراً .

الشريف الأول : سنلاعب لك هذا الثعلب قليلاً قبل أن تسلخ جلده ، فقد

استراب به من قبلنا الشريف لافيه الشيخ ، فما زال به حتى كشف ستره ، وإنك لمنبئ برأيك فيه ، حين تشهده الليلة بالذات .

الشريف الثانى : إننى ذاهب لأعد الحبائل له ، وإنه لمحتبل .

برتوام : وسيذهب أخوك معى .

الشريف الأول : كما تريد يامولاى ، إننى تاركمكما .

(يخرج)

برتوام : والآن ، أذهب بك إلى البيت وأريك الفتاة التى تحدثت إليك عنها .

الشريف الثانى : ولكنك تقول إنها عفة .

برتوام : هذه هى المصيبة كلها ، لقد كلمتها مرة واحدة فوجدتها باردة أعجب البرودة ، ولكنى بعثت إليها ، مع هذا المأفون الذى نريد الايقاع به ، بهدايا وكتب ، فردتها ولم تتقبلها ، هذا كل ما فعلته ، إنها لحسناء ، ألا تأتى لنراها ؟

الشريف الثانى : من كل قلبى يا مولاى .

(يخرجان)

المشهد السابع

حجرة فى منزل الأرملة

(تدخل هيلين والأرملة)

هيلين : إذا كنت فى ريب منى ، ولا تصدقين أننى هى ، فلست أدرى كيف أزيدك يقيناً ، إلا إذا فقدت الأساس الذى أبنى عليه عملى .

الأرملة : لئن كانت حياتى فى المجتمع متداعية ، فقد كنت كريمة المنبت ، طيبة الأعراق ، لا أعرف من هذه الأمور شيئاً ، فلست أرضى بتعريض سمعتى لفعلة سوءى ، ولا أقبل عملاً مشيناً .

هيلين : وأنا لا أرضاه لك ولا أرجوه ، ولكنى إنما أطلب إليك أن تثقى أن الكونت هو زوجى ، وكل ما طلبت إليك أن تقسمى على كتمانه صحيح بجملته وتفاصيله ، ولن تأثمى إذا أنت وهبتنى العون الكريم الذى سألتك إياه .

الأرملة : لابد أن أصدقك بعد أن ثبت لى أنك ذات ثراء عظيم .

هيلين : خذى هذا الكيس الملىء ذهباً ، ودعينى أشتر معونتك الصادقة به ، وسأزيدك أجراً وأضاعفه لك ، إذا وجدتها لديك ، إن الكونت يغازل ابنتك ، ويضرب حصاره الدفين

حول حسنها ، ويعتزم الظفر بها ، فدعيها تظهر الرضا ، وسنشير عليها بما ينبغي أن تفعله ، وهو فى لهفته ، وحرارة شهوته ، لن يضن عليها بشيء تطلبه ، إنه يضع فى إصبعه خاتماً موروثاً من بيته كابراً عن كابر ، منذ بضعة أجيال ، حين كان جده الأول يلبسه ، وهو بهذا الخاتم لمعتز ، وعليه حريص ، ولكنه من سعير شهوته ، لن يأبى النزول عنه ، لشراء طلبته ، وإن ندم عليه بعد ذلك .

الأرملة : الآن فهمت غرضك .

هيلين : وعرفت أنه حلال مشروع ، فكل ما هو مطلوب أن تطلب ابنتك هذا الخاتم منه قبل أن تتظاهر له بالرضا ، وتضرب له موعداً للقاء ، وقصارى القول دعيني أحل محلها ، وهى غائبة طاهرة ، وسأضيف إلى ما قد دفعت ثلاثة آلاف دينار لترويجها وتجهيزها .

الأرملة : وأنا موافقة ، فاشرحى لابنتى كيف تسلك ، وبيني لها كيف السبيل ، حتى يتم المطلوب فى المكان المعين ، والموعد المضروب ، تحقيقاً لهذه الخدعة المشروعة ، والحيلة التى يجانبها الإثم ، إنه يأتى كل ليلة بمختلف الموسيقات والألحان ، وينشدها الأغانى ويمنيها الأمانى ، ليراودها عن عفافها ، ولا نجد شيئاً يرده عن دارنا ، لأنه الملح الدءوب ، كأن فى هذا الأمر حياته .

هيلين : لنحاول الليلة إذن حيلتنا ، ولننفذ خطتنا ، فإن أفلحنا فذلك شر يراد به خير ، وحلال يراد به حلال ، كلاهما لا إثم فيه ، وإن ظل الواقع أثيماً ، فلنمض فيه .

(تخرجان)

الفصل الرابع

المشهد الأول

في خارج معسكر الفلورنسيين

(يدخل أحد الشريفين الفرنسيين مع خمسة جنود أو ستة بمثابة «كمين»)

الشريف الثانى : ليس أمامه طريق يسلكه غير هذا السياج ، فإذا أقبل ، فانقضوا عليه ، وبادروه بلسان مخيف ، ولغة منكرة ، لا تفهمون منها شيئاً ، فذلك أمر لا يهم ، إذ لا ينبغى أن نتراءى كأننا نعرفه أو نفهمه ، ما لم ينبر أحد فيكون ترجماناً بيننا وبينه .

جندى : يا حضرة الضابط ، لأكن أنا الترجمان .

الشريف الثانى : أليست بينك وبينه معرفة ، هل يعرف صوتك ؟

جندى : كلا ، يا سيدى ، أؤكد لك .

الشريف الثانى : ولكن ما هى الرطانة التى ستكلمنا بها ؟

جندى : عين التى ستكلموننى بها .

الشريف الثانى : يجب أن يحسبنا عصبة من الغرباء ، فى خدمة الأعداء ، وهو يعرف قدراً قليلاً من لغات الأقاليم المجاورة كلها ، فليتحدث

كل واحد منا باللسان الذى يخترعه لنفسه ، حتى نبدو كأننا لا نعرف ما يتحدث به كل منا للآخر ، فإذا بدا أننا نعرف شيئاً فهو غرضنا المباشر ، فيكون كلامنا كالغربان نعيقاً ، وليكن ثرثرة متقنة وصياحاً وزعيقاً ، أما أنت أيها الترجمان ، فلتستعن السياسة ، ولتحذق الوساطة ، هلموا اختبئوا ، ها هو ذا قادم ، إنه سيقضى ساعتين نائماً ، ثم يعود فيقسم على الأكاذيب التى يخترعها أنه لمن الصادقين .

(يدخل بارولس)

بارولس : الساعة العاشرة ، فى هذه الساعات الثلاث فسحة كافية للذهاب إلى البيت وما سأقول إننى قد فعلته ؟ ينبغى أن يكون ما يؤيده اختراعاً بارعاً ، وتلفيقاً متقناً يؤدى إلى المراد منه ، لقد بدءوا يشتمُّون رائحتى ، ويبصرون دخانى ، وأخذت الفضيحة فى هذه الأيام تدق بابى ، وأرى لسانى مفرطاً فى الجرأة والبيان ، ولكن قلبى لا يزال يواجه مخاوف النزال والطعان ، فلا يجسر على ما يرويه اللسان .

الشريف الثانى : هذه أول كلمة حق أجرم لسانك فنطق بها .

بارولس : أى شيطان هذا الذى دفعنى إلى التعهد باسترداد هذه الطبلة وأنا العليم بأن استردادها ضرب من المحال ، وما دمت أعلم أن هذا المطلب ليس هدفى ؟ . لا معدى عن إصابة نفسى ببعض الجراحات ، لا قول إننى تلقيتها فى المعارك ، ولكن الجروح

اليسيرة لن تؤدى المراد ، فسيقولون ألم تخرج منها إلا بهذه الخدشات ؟ ولست على الجروح النجل بقادر ، ولا على الأذى البالغ بالجسور ، فما الحجة إذن وما الحيلة ؟ . . أيها اللسان . . لابد لى من أن أضعك فى فم بائعة زبد[١] أو أبتاع بغلة بايزيد[٢] إذا أنت ورطتنى فى هذه المهالك ، ودفعت بى إلى هذه المآذق .

الشريف الثانى : أيمكن أن يكون على بينة من نفسه ، ثم يتراءى فى هذه الصورة التى يبدو بها ؟

بارولس : أود لو أن تمزيق ثيابى يؤدى الغرض ، أو كسر سيفى الأسبانى يفى بالمراد .

الشريف الثانى : (لنفسه) ولكننا لن نتيح لك ذلك ، ولن نتركك تفلت بهذه السهولة .

بارولس : أو أحلق لحيتى وأقول إنها خدعة حربية .

الشريف الثانى : (لنفسه) ولا هذا يغنى .

بارولس : أو إغراق ثيابى لأقول إننى جردت منها تجريداً .

---

(١) كانت بائعات الزبد واللبن فى الأسواق معروفات بكثرة التقريع والتوبيخ والانتهار .

(٢) كثر الخلاف بين الشراح فى صحة هذه الكلمة هل هى «بغلة بايزيد» ، أم وقع فيها تحريف فقال بعضهم إنها قد تكون «بغل بلعام» لا بايزيد ، وقال آخرون لعلها «زوجة بايزيد» لا بغلته ، وهى «زبينا» ، والغالب أن تكون كذلك للتناسب بينها وبين بائعة الزبد ، والمراد أن بارولس يرى أنه لا أمل له فى الخلاص السهل من الحرج الذى يضعه فيه لسانه ، إلا أن يستعين عليه بالزجر والتأنيب حتى يقلع عن كثرة الادعاء .

الشريف الثانى : (لنفسه) ولا هذا يكاد يجدى .

باروس : ولو حلفت بأننى ألقيت بنفسى من نافذة القلعة .

الشريف الثانى : (لنفسه) من أية مسافة ؟

باروس : ثلاثون قامة[٣] .

الشريف الثانى : (لنفسه) لن يصدقك أحد ولو أقسمت ثلاثة أيمان مغلظة عليه[٤] .

باروس : ليت لى طبلة من طبول العدو لأقسم أننى استرددتها .

الشريف الثانى : (لنفسه) ستسمع فى الحال قرع واحدة .

باروس : الآن أسمع قرع طبول العدو .

(صيحات من الداخل)

الشريف الثانى : تروكا موفسامس ، كارجو ، كارجو ، كارجو .

الجميع : كارجو ، كارجو ، فيلياندا ، باركاريو ، كارجو[٥] .

(يمسكون به ويعصبون عينيه)

باروس : الفداء ، الفداء ، لا تحجبوا عينى .

الترجمان : بوسكوس ترومالدو بوسكوس .

باروس : أعرف أنكم من فرقة المسكوس ، وأننى سأفقد حياتى لجهلى بلسانكم ، وإذا كان منكم ألمانى هنا أو دانمركى أو هولندى

---

(٣) مقياس بحرى ، والقامة ست أقدام .

(٤) حين قال ثلاثين قامة ، اختار الشاعر رقماً مناسباً لعدد الأقسام ففرضها ثلاثة .

(٥) كلام رطانة لا معنى له للتهويش على باروس وتخويفه .

أو إيطالى أو فرنسى ، فليكلمنى فإنى كفيل بأن أكشف عما سوف يؤدى إلى هلاك الفلورنسى .

الترجمان : بوسكوس فوفادو ، إنى أفهمك ، وأستطيع أن أتكلم لغتك — كريلينبتو — ارجع إلى دينك ، واستقبل منيتك ، إن سبعة عشر خنجراً مصوبة إلى صدرك .

بارولس : آه .

الترجمان : صل لله ، صل لله ، صل لله ، مانكا رافيانيا دولشى .

الشريف الثانى : أوسكوربيدولشى فوليفاركو .

الترجمان : إن القائد ليرتضى الإبقاء عليك وسيساق بك وأنت معصوب العينين على هذا النحو ليعرف معلومات منك ، فلعلك قائل شيئاً تنقذ به حياتك .

بارولس : أبقوا على حياتى أقل لكم أسرار معسكرنا جميعاً ، وأنبئكم بقواتنا ، وأهدافنا ، بل إنى لقائل لكم ما فيه العجب العجاب .

الترجمان : ولكن أقائل أنت صدقاً ؟ .

بارولس : اللعنة علىّ إن لم أفعل .

الترجمان : أكوردو لنتا ، هلم ، لقد منحت مهلة .

(يخرج مع بارولس تحت الحراسة ، صيحات قليلة من الداخل)

الشريف الثانى : اذهب قل للكونت روسيون وأخى إننا قد قبضنا على الحجل ، وسنبقيه معصوباً مكمماً حتى نسمع منهما .

جندى : طاعة يا حضرة الضابط .

الشريف الثانى : وسيكشف أمرنا كلنا لأنفسنا ، قل لهما ذلك .

الجندى : سأفعل يا سيدى .

الشريف الثانى : وقل لهما إننى سألقى به فى غيابة السجن وأعتقله إلى أن يفعل هذا .

(يخرجان)

المشهد الثانى

(يدخل برترام والفتاة «ديانا»)

برترام : لقد أنبئونى أنك تسمين فونتيبل .

ديانا : كلا يا مولاى الكريم ! بل ديانا .

برترام : أنت الربة ذات اللقب ، وإنك لجديرة به وبأكثر منه . ولكن أيتها الإنسانة الجميلة أليس للحب فى هيكلك الجميل موضع ؟ إذا لم يكن تشغل نار الشباب الشريفة المندلعة خاطرك فلست فتاة ، من لحم ودم ، بل أنت تمثال جامد ، ولحين تموتين يجب أن تكونى كما أنت ، باردة هامدة عبوساً لا تتحركين ، أما الآن فيجب أن تكونى كما كانت أمك حين ولدتك ، أيتها المخلوقة الحسناء .

ديانا : لقد كانت يومئذ مخلصة وفية .

برترام : فلتكونى أنت مثلها .

ديانا : كلا ، إن أمّى أدت الواجب عليها ، وهو يا مولاى ما أنت مدين به لزوجك .

برترام : حسبك لا تزيدى فى هذا الموضوع ولا تحاولى أن تقولى شيئاً ضد إيمانى ، لقد أرغمت على زواجها إرغاماً ، ولكن قسماً برباط الله المحبب أنى سأؤدى إليك كل ما يوجبه ذلك الحب

ويتطلبه من خدمات .

ديانا : أى والله ، إنك تخدمنا حتى نخدمك ، ولكن إذا قطفت ورودنا ، لم تترك لنا غير أشواكنا ، لتشكنا ، وتسخر من عُرينا وخلاء وعودنا .

برترام : لكم أقسمت ، ولكم حلفت !

ديانا : لا تحق الحق كثرة الأيمان [٦] ، ولكن القسم الأوحد الصريح هو الذى يشهد بالحق ، وتحق الشهادة به ، ونحن نذكر اسم الله نفسه حين نقسم يميناً ، ولكن اسم الله نفسه لا يجعل الناس أكثر تصديقاً للقسم إذا كان مغايراً للحقيقة . أرجو أن تنبئنى هل تصدق أقسامى إذا أنا أقسمت بحقه وعظمة صفاته ، أننى أحبك وأعزك ، فى حين أننى لا أستشعر حبًّا لك ولا إعزازاً . لا خير فى يمين بالله إذا عقدت النية على اقتراف عمل يغضبه ، وارتكاب فعل لا يرضيه ، إن إيمانك إذن ألفاظ سقيمة ، وصفات وشروط — فى رأيى على الأقل — غير مؤكدة ولا مضمونة .

برترام : غيريها وبدليها ، ولكن لا تكونى هكذا قاسية ، فى التمسك بالنقاء والقدسية ، إن الحب مقدس ، وأنا فى صدق فطرتى لم أعرف يوماً الخدع التى تتهمين الرجال بها ، فلا تتباعدى ،

---

(٦) حكمة بالغة ، يريد بها أن يقول أن كثرة الأقسام لا تدل على أن ما قيل هو الحقيقة .

ودعى عنك الجفاء ، وهبي نفسك لشهواتى «المريضة» حتى يتوانى لى البرء منها والشفاء[٧] ، قولى إنك لى ، تشهدى أن حبي كما يبدأ ، لن يكون له انتهاء .

ديانا : أرى الرجال يحاولون أخذنا على غرة منا ، أملاً فى إيقاعنا ، فى أثناء غفلتنا وطيشنا[٨] ، أعطنى هذا الخاتم .

برترام : أعيرك إياه يا عزيزتى ، ولكن لا قدرة لى على النزول عنه .

ديانا : أتأبى يامولاى أن تعطينيه ؟

برترام : إنه شرف يتصل ببيتنا ، توارثناه من أسلافنا ولو تخليت عنه لكان ذلك أكبر وزر فى هذا العالم .

ديانا : وشرفى أنا هو كهذا الخاتم ، وعفافى هو درة بيتنا ، توارثناها عن كثير من آبائنا ، ولو تخليت عنه لاقترفت أكبر وزر فى هذا العالم ، وهكذا ترى أن منطقك نفسه يجعل بطولة الشرف فى جانبي ضد عدوانك الباطل .

برترام : ها هو ذا الخاتم خذيه ، وليكن بيتى وشرفى وحياتى ملك يمينك ، فانظرى بماذا تأمرين .

ديانا : إذا انتصف الليل فأطرق نافذة مخدعى ، وسأحتاط للأمر حتى

---

(٧) وصفها بالمريضة ليتناسب هذا الوصف مع قوله «الشفاء» .

(٨) فى الأصل عبارة غامضة اختلف الشراح فيها ، وذهب فريق كبير منهم إلى أن فيها تحريفاً ، فهى فى المتن malse ropes وليس لها معنى غير قولك «يصنعون حبالاً» وهو ما يحطنا نفكر فى «حبائل» الصائد جمع «حبالة» وهى تصنع من الحبال .

لا تسمع أمى ، والآن عاهدنى حقًّا أنك حين تغزو فراشى الذى كان حتى تلك اللحظة طاهراً عفيفاً لن تمكث فيه غير ساعة واحدة ، وألا تكلمنى خلالها ، إنّ لدى أسباباً قوية ، ستعرفها حين يرد هذا الخاتم إليك ، وسأضع تحت جنح الليل فى إصبعك خاتماً سواه ، ليبقى على الأيام رمزاً لما أتيناه ، وتذكاراً لما فعلناه ، فإلى الملتقى ولا تخلف الموعد ، فقد ظفرت منى بزوج وإن كان أملى قد تحقق أو «أخفق»[٩] .

برترام : بل لقد نلت منك بالعشق جنة الأرض .

ديانا : إذن فلتطل بك الحياة لتشكر رب الجنة وإياى ، ولعلك فى النهاية فاعل .

(يخرج برترام)

لقد نبأتنى أمى كيف سيغازلنى ويتودد ، كأنها كانت فى صميم قلبه وتقيم وتتردد ، لقد قالت لى إن الرجال فى الأقسام والإيمان سواسية ، وها هو ذا قد أقسم أن يتزوج بى ، إذا ماتت زوجته وقضت ، إذن سوف أعاشره فى المهجع وأشاركه فى المرقد ؛ حين أدفن تحت الثرى وأوسد ، وما دام الفرنسيون هكذا أهل خداع وتغرير ، فإنى أقسم أن سأعيش

---

(٩) تريد أن تفهمه أن استسلامها سيقضى على أملها فى الزواج ، وإن كانت تريد أيضاً التلميح لأملها بالنسبة إلى هيلين وما تريد أن تتولاه عنها .

وأموت عذراء ، وأحسب أن لا إثم فى هذا التنكر للاحتيال على من يريد الفوز ظلماً وبهتاناً .

(تخرج)

المشهد الثالث

(يدخل الشريفان الفرنسيان وجنديان أو ثلاثة)

الشريف الأول : أو لم تسلم إليه كتاب أمه .

الشريف الثانى : سلمته إليه منذ ساعة ، وإن فيه لشيئاً جارحاً لشعوره ، فقد كاد يستحيل إلى رجل آخر عند قراءته[١٠] .

الشريف الأول : إن عليه لتثريباً شديداً ، أن ينفض عنه زوجاً كريمة ، وسيدة جميلة .

الشريف الثانى : ولا سيما أنه استهدف لغضب مقيم من الملك ، ونقمة لن تزول ، برفض الهناءة التى عرضها عليه ، وإباء السعادة التى اصطفاها له ، وسأنبئك بأمر أرجو أن تطوى صدرك عليه .

الشريف الأول : إن نطقت به كان هو الميت وأنا له القبر .

الشريف الثانى : لقد غوى هنا فى فلورنسا سيدة شابة عرفت بالعفاف ، وسينفذ الليلة لأول مرة غرضه باستلاب شرفها ، وقد أعطاها خاتمه التذكارى وهو يحسب أنه قد عوض عنه فى مساومته الأثيمة .

الشريف الأول : حمانا الله من الثورة على أنفسنا والغدر بذواتنا ، فإنا نحن كما نريد أن نكون .

---

(١٠) أى بدا مصفرًّا شاحباً ، وهذه العبارة لا تشير إلى أى تأثير معنوى بدليل ما سيأتى بعد .

الشريف الثانى : لسنا إلا غدرة خونة لأنفسنا ، فلا نزال كدأب كل غدر ، وشأن كل خيانة ، نراها تتكشف ، حتى تنال جزاءها الحقير الدنىء ، فمن يسىء إلى حسن سمعته ، ويكيد كيده ليطيب أحدوثته ، يغرق فى تيار شهوته .

الشريف الأول : أليس من نقمة الله علينا أن نكون المعلنين لمآربنا المحرمة ، إذن لن نكون الليلة فى صحبته .

الشريف الثانى : حتى ينقضى منتصف الليل ، لأنه الحريص على موعده ، الحفيظ لساعته .

الشريف الأول : إن الموعد يقترب بسرعة ، ويسرنى أن يرى صاحبه على المشرحة ، حتى يتبين مدى الخطل فى أحكامه ، وفساد الرأى عنده ، إذ يصر على تقدير هذا المحتال الذى اصطنعه لنفسه ، أكثر من قدره .

الشريف الثانى : لن نتدخل فى أمره حتى يحضر ، لأن حضوره سيكون السوط الذى يهوى على صاحبه .

الشريف الأول : وإلى أن يأتى لنتحدث عن الحرب ، ماذا لديك من أنبائها . .

الشريف الثانى : سمعت أن هناك مفاتحة فى الصلح .

الشريف الأول : بل أؤكد لك أن صلحاً قد أبرم .

الشريف الثانى : وماذا ترى الكونت روسيون إذن صانعاً ؟ أتراه سيواصل أسفاره ، ويوغل فى ترحاله ، أم سيعود إلى فرنسا .

الشريف الأول : يبدو لى من سؤالك هذا أنك لست صاحب سره وأخاً

لمشورته .

الشريف الثانى : لا قدر الله يا سيدى ، حتى لا أكون شريكاً له فى أفعاله .

الشريف الأول : اسمع يا سيدى ، إن زوجه منذ شهرين فرت من بيته ، وغرضها هو الحج إلى مزار سان جاك الكبير ، وقد أدت هذا العمل المقدس على أتم وجهه ، وجلال قدسيته ، ثم أقامت بذلك الموضع ما شاءت أن تقيم ، وهى فريسة للأحزان ، لرقة طبيعتها ، نهب للأسى من فرط لوعتها ، حتى فاضت روحها وجادت بآخر أنفاسها ، فهى اليوم تغنى فى السماء ، وتشدو فى الجنة .

الشريف الثانى : وبأى شىء تؤيد النبأ ؟

الشريف الأول : إن أقوى البينات على صدقه كتبها ، التى تؤيد قصتها بما فيه موتها نفسه ، وإن موتها نفسه ، وهو ما لا تستطيع هى أن ترويه ، قد أيده قسيس الجهة .

الشريف الثانى : أعند الكونت بكل هذا علم ؟

الشريف الأول : أجل . . بكل دقائقه ، وجملة حقيقته .

الشريف الثانى : يحزننى حقًّا أنه سيسر بها ويستريح إليها .

الشريف الأول : لكم نجد السلوة والراحة فى مغارمنا وخسائرنا أحياناً .

الشريف الثانى : وكم أحياناً أخرى نغرق مغانمنا فى لجة دموعنا ؟ ، إن الشرف الباذخ الذى كسبه هنا ببسالته ، سيقابل فى وطنه بعار يعدل هذا الشرف فى قوته .

الشريف الأول : إن نسيج حياتنا مصنوع من خيوط جيدة وخيوط رديئة معاً ، وإن حسناتنا لتزهى وتفخر إذا لم تؤذها أغلاطنا ، ولم تعلها بالسوط سيئاتنا ، كما أن جرائمنا وخطايانا ستهوى بنا إلى الحضيض إذا لم تترفق بها فضائلنا .

(يدخل رسول)

ماذا وراءك ، أين مولاك . .

الرسول : لقى الدوق فى الطريق يا سيدى ، فاستأذن منه فى السفر وسيرحل مولاى غداً إلى فرنسا ، وقد حمله الدوق كتب توصية إلى الملك .

الشريف الثانى : لن تجدى وإن بالغت فى التوصية .

(يدخل الكونت برترام روسيون)

الشريف الأول : ولن تخفف مهما تكن حلاوتها من مرارة غضب الملك وموجدته ، ها هو ذا الكونت . كيف هذا يا مولاى ، ألم ينقض منتصف الليل .

برترام : لقد أنقذت الليلة ست عشرة مهمة ، كل منها طولها شهر ، فقد شرحت للدوق باختصار جملة فوزى فى المعارك وانتصاراتى ، ثم استأذنته فى عودتى ، وودعت المقربين منه ، ودفنت زوجاً ، وحددت عليها ، وكتبت إلى والدتى أننى عائد إليها ، واستأجرت مطاياى ، وبين هذه المهام الكبيرة قضيت أوطاراً ، أقل منها أخطاراً ، كان آخرها أكبرها ، وإن لم أنته

بعد منه .

الشريف الثانى : إذا كانت هذه المهمة شاقة ، وأنت غداً راحل من هذه الديار ، فإن المهمة إذن تقتضيك العجلة والبدار .

برترام : أريد بقولى إنها لم تنته أنى أخشى أن أسمع عنها بعد ، ولكن لنسمع هذا الحوار بين المهرج والجندى ، هاتوا هذا المزيف المحتال ، الذى خدعنى ، كالعراف الذى يجعل قوله على حرف ، ويدع كلامه يحتمل معنيين ، ويفتح على تفسيرين .

الشريف الثانى : أحضروه إلينا . لقد قضى الليل كله مقيداً ، هذا الوغد الجسور المسكين .

(يخرج الجنود)

برترام : لا بأس ، لقد أخذ بذنوبه ، وساقت به رجلاه إلى الموضع الخليق به ، بعد أن وضع المهماز فى حذائه[١١] ، اغتصاباً ، وزعم الشجاعة والفروسية زوراً وكذباً ، وكيف كان سلوكه ؟ . .

الشريف الثانى : لقد نبأتك آنفاً يا مولاى ، بأن القيد فى رجليه ، فهو فيه مسلوك ، ولكن إن شئت أن أرد عليك بالأسلوب الذى تفهمه أقول إنه يبكى كالمرأة التى سكبت لبنها ، واعترف بكل ما اجترح من ذنوب لمرجان الذى ظنه قسيساً ، فلم يغادر شيئاً

---

(١١) وضع المهماز فى حذائه بلا حق ، وكان المهماز شارة من شارات الفروسية .

من عهد بداية وعيه إلى هذه اللحظة التى وضع فيها القيد فى رجليه ، إلا باح به ، فماذا تظن أنه قال فى اعترافه ؟

برترام : لا شىء فيه عنى ، أليس كذلك ؟

الشريف الثانى : لقد دونا اعترافه ، وسيتلى عليه فى محضره ، فإن جاء فيه ذكرك ، يا مولاى ، وأعتقد أن ذكرك فيه وارد ، فاصطبر لسماعه .

(يدخل بارولس والترجمان)

برترام : اللعنة عليه ، هذا المكمم ، إنه لا يقدر أن يقول عنى شيئاً . . اغضض من صوتك ، اغضض من صوتك .

الشريف الأول : المعصوب جاء . . بورتو تروتوروسا .

الترجمان : إنه يطلب لك آلة التعذيب ، فماذا أنت قائل بغير حاجة إليها .

بارولس : سأعترف بما أعرف ، بغير إكراه ، أما إذا شككتمونى كما تشك الفطيرة ، فلن أقول شيئاً .

الترجمان : بوسكو شمسرشو .

الشريف الأول : بوبليبندو شكرموركو .

الترجمان : إنك لقائد رحيم . . إن قائدنا يأمرك بأن ترد على أسئلتى المدونة .

بارولس : سأرد صدقاً ، وأقول حقًّا ، لأنى أريد الحياة .

الترجمان : يسأل أولاً ، كم عدد فرسان الدوق ، ماقولك فى هذا ؟

بارولس : خمسة آلاف أو ستة ، ولكنهم ضعاف ولا يصلحون والجنود

موزعون مبعثرون ، والقواد محتالون مساكين ، هذا هو قولى أغامر فيه بالسمعة والمهابة ، وأرجو أن أوهب الحياة .

الترجمان : هل أدون هذا الرد كما هو . .

بارولس : افعل ، إنى مستعد أن أقسم بالسر المقدس عليه[١٢] ، كيف وبأى طريقة تشاء .

برترام : كلاهما سيان عنده ، يأله فيه من عبد خسيس غير خليق بالنجاة .

الشريف الأول : أنت مخطئ يا مولاى ، هذا هو مسيو بارولس المحارب المقدام ، كما اعتاد أن يصف نفسه ، والجندى الذى جمع كل فنون الحرب ونظرياتها فى عقدة ملفعته ، والترس بها فى جفن خنجره .

الشريف الثانى : لن أثق بعد اليوم بإنسان ، لأنه يحتفظ بسيفه نق النصل نظيف السنان ، ولن أصدق أنه قد حوى كل شىء ووعى ، لأنه يرتدى ثياباً أنيقة .

الترجمان : انتهينا من تدوين هذا الذى قلت .

بارولس : لقد قلت خمسة أو ستة آلاف من الفرسان ، ولقد أضفت

---

(١٢) السر المقدس أو العشاء الربانى معروف فى الطقوس المسيحية ، وقوله «كيف وبأى طريقة تشاء» ، معناه أن بارولس لا يعرف جنسية مستجوبه ، ومذهبهم الدينى ، هل هم كاثوليك أو بروتستانت ، فهو لهذا يقول إنه على استعداد للقسم بالسر المقدس على أى مذهب يشاءون ، أى حسب طلبهم .

أو نحوها اكتب هذا لأنى أريد أن أقول الحق .

الشريف الأول : إنه فى هذا جد قريب من الحق .

برترام : ولكنى لا أشكره عليه ، لطبيعة الأسباب التى دفعته إليه .

بارولس : محتالون مساكين من فضلك أكتب هذا عنى .

الترجمان : لقد دونته .

بارولس : شكر الخاضع يا سيدى ، الحق حق ، فإن أولئك المحتالين المساكين بشكل عجيب .

الترجمان : اسأله وكم مشاتهم . . ماذا تقول فى هذا ؟

بارولس : يمين الحق يا سيدى ، سأقول الحق إذا قضى لى أن أعيش فى الساعة الراهنة ، دعنى أتذكر ، سبوريو مائة وخمسون وسباستيان مثلهم ، وكوركيباس مثلهم وجاك مثلهم ، وجوليتان وكوزمو ولورديك وجراتاى ، مائتان وخمسون لكل منهم ، وسريتى ، التى تحت إمرتى ، وسرايا شتوفر وفوموند ، وبنتاى مائتان وخمسون كذلك ، أعنى أن الجملة ، بين معطوب وسليم لا تتعدى ، وحياتى ، خمسة عشر ألفاً ، نصفهم لا يقوى على نفض الثلج عن قلانسهم ، خشية أن تنتفض أجسامهم من هذا الجهد انتفاضاً .

برترام : ماذا يصنع به .

الشريف الأول : لا شىء ، ليتلق منا شكوراً ، سله عنى وما مكانى عند الدوق .

الترجمان : هذا مدون لدينا ، سله هل فى المعسكر ضابط فرنسى يدعى الكابتن ديمان[١٣] ، وما منزلته عند الدوق وما مدى بسالته ونزاهته وخبرته بالحروب ، وهل يعتقد أنه لا يمكن بالمال الطائل ، والذهب الكثير ، أن يرشى لينتقض ويتمرد ، ما قولك فى هذا وما علمك به ؟

بارولس : أرجو أن تدعنى أجيب عن كل سؤال من هذه الأسئلة على حدة ، أسألنيها منفردة .

الترجمان : هل تعرف هذا الضابط — ديمان ؟

بارولس : أعرفه ، لقد كان صبى مرقع للملابس القديمة فى باريس ، فضرب بالسياط وطرد من خدمته لإغرائه بنتاً بلهاء مسكينة من البنات اللاتى يتولى المختار رعايتهن ، وهى ساذجة خرساء لم تستطع أن تقول له لا .

(ديمان يرفع يده عليه وهو غاضب)

برترام : لا ترفع من فضلك عليه يديك ، إنى أعرف أنه سيلقى يوماً حتفه .

الترجمان : وهل هذا الضابط فى معسكر دوق فلورنسا ؟

بارولس : نعم ، على قدر علمى ، وهو خسيس حقير .

الشريف الأول : لا تنظر إلى هكذا ، سنسمع عن مولاك حالاً .

---

(١٣) هو الشريف الأول .

الترجمان : وما مكانته عند الدوق ؟

باروليس : الدوق لا يعرف عنه إلا أنه ضابط حقير عنده ، وقد كتب إلىّ منذ يومين يطلب إلى أن أطرده ، وأظن أن كتابه معى فى جيبى .

الترجمان : سنفتشك .

باروليس : فى الحق يحزننى أن أقول إننى لا أعرف هل هو فى جيبى أم هو فى ملف مع كتب أخرى تلقيتها من الدوق ، والملف فى خيمتى .

الترجمان : ها هو ذا ، هذه ورقة ، هل أتلو عليك ما فيها ؟

باروليس : لا أدرى هل هى أم لا .

برترام : إن ترجماننا يحسن قراءتها .

الشريف الأول : كل الإحسان .

الترجمان : ياديانا . . إن الكونت أبله عنده ذهب كثير .

باروليس : هذا ليس كتاب الدوق يا سيدى . . بل هو تحذير لفتاة عفة فى فلورنسا تدعى «ديانا» ، حتى لا تنخدع بإغراء كونت يدعى الكونت روسيون وهو غلام أحمق عاطل ، ولكنه إلى جانب ذلك كله داعر عاهر ، أرجوك يا سيدى أن تعيد الورقة إلى مكانها .

الترجمان : كلا ، سأقرأها أولاً بعد استئذانك .

باروليس : إن الغرض الذى أردته من ذلك الكتاب شريف ، من ناحية

الفتاة ومصلحتها ، فقد عرفت هذا الكونت الشاب غلاماً خطراً فاجراً كالحوت فى افتراس العذارى ، يلتهم كل ما يجده من لحم طرى .

برترام : لعنة الله عليك من نصاب محتال ظاهراً وباطناً .

الترجمان : (يقرأ) «فإذا أقسم لك قسماً ، فأمريه أن يلقى فى إثره ذهباً ، وما يلقيه خذيه ، فهو إذا ابتاع شيئاً نسيئه لا يؤدى أبداً ثمن ما يبتاع ، إن من تحسن المساومة فقد أخذت نصف مكسبه . فساومى إذن وأحسنى المساومة قبل أن تعطيه ما يريد ، وقولى يا ديانا إن جندياً نبأك بهذاعنه ، وحذرك هكذا منه ، خليك مع الرجال ، وإياك وقبلات الغلمان ، وإذا كنت تريدين الحقيقة ، فاعلمى أن «الكونت» مجنون وأنا بذلك عليم ، يدفع قبل أن يملك ، ولا يدفع وهو مدين . . المخلص إليك ، فى همسة فى أذنيك . . بارولس» .

برترام : سيساط أمام الجيش ، وعلى جبينه هذه الأبيات من الشعر .

الشريف الثانى : هذا هو صديقك المخلص يا سيدى ، واللغوى العريف بعديد الألسن ، ومختلف اللغات ، والجندى «القدير على كل شىء» فى المعارك والساحات .

برترام : لقد كنت من قبل أحتمل أى شىء إلا الهررة ، والآن إنه لهر فى عينى .

الترجمان : يلوح لى يا سيد من نظرات قائدنا أننا سنضطر إلى شنقك .

بارولس : حياتى أولاً يا سيدى بأية حال ، لا لأننى من الموت خائف ، بل لأنى كثير الذنوب ، وأريد أن أكفر عنها بقية العمر ، فدعنى يا سيدى أعش فى محبس ، مقيداً أو فى أى مكان ، إذ حسبى أن أحيا ، ويكفينى أن أعيش .

الترجمان : سنرى ماذا يمكن أن نفعل ، إذا كنت تعترف بكل شىء ، فلنعد إلى الضابط ديمان ، فقد رددت على السؤال الذى يتصل بمكانته عند الدوق ، وعن مدى بسالته ، فما قولك فى نزاهته وأمانته ؟

بارولس : إنه لا يتورع عن سرقة بيضة من الدير يا سيدى[١٤] ، وهو يحكى نيسوس[١٥] فى اختطاف الفتيات وسلب عفتهن ، ويعلن أنه الحنث بالأيمان ، الناكث بالمواثيق والأقسام ، وهو فى الحنث بها أقوى من هرقل وأشد بأساً ، وإنه فى الكذب لذلق اللسان ، فياض البهتان ، حتى ليزرى كذبه بالصدق ، ويجعل الحق أشبه بالهذيان ، والسكر هو أفضل صفاته ، وأحسن سجاياه ، فهو يشرب كالحلوف[١٦] ، وفى نومه لا يحدث غير أذى يسير ، إلا فى الفراش والغطاء ، وقد

---

(١٤) أى يسرق أى شىء تافه من مكان مقدس لا يصح أن يسرق أحد منه شيئاً .

(١٥) هو حيوان خرافى يقال له «القنطروس» نصفه إنسان ونصفه حصان ، وقد حاول أن يغتصب «دينيره» زوجة هرقل ، ولكن هذا بادره بسهم فأرداه .

(١٦) أى يسكر حتى لا يعى من فرط السكر ، والحلوف يكثر من الشرب .

عرفوا هذا عنه ، فجعلوا فراشه من القش ، وليس عندى يا سيدى ما أزيده بسبيل أمانته ، غير قولى إن لديه كل ما ينبغى للرجل الأمين ألا يكون لديه ، أما ما ينبغى أن يتوافر عند الرجل الأمين ، فليس عنده منه شىء .

الشريف الأول : بدأت لهذا أحبه .

برتوام : لهذا الوصف الذى يصف به أمانته ؟ اللعنة عليه ، إنه يزداد عندى إمعاناً فى أنه الهر ؟

الترجمان : وما قولك عن خبرته بالحرب ؟

يمين الله يا سيدى ، لقد حمل الطبلة فى طليعة فرقة الممثلين الإنجليز[١٧] ، ولست أريد أن أكذب عليه ، ولكنى لا أعرف عن جندبته غير ما قالت ، إلا أنه كان له فى تلك البلاد الشرف يوماً فى العمل ضابطاً فى موضع يقال له « مايل أند »[١٨] للتدريب على ازدواج الصفوف ، وكان بودى أن

---

(١٧) كانت العادة كلما ذهبت فرقة من الممثلين لعرض مسرحياتها فى القرى والريف أن تطوف بشوارعها ، وتدق طبولها ، وكان الذى يحمل الطبلة فى الطليعة ، والغالب أنه من الجنود الضعفاء الذين لا يعرفون شيئاً ، فإذا فرغ من دق الطبل قام أحد الممثلين فخطب فى الناس وبين لهم مزايا المسرحية المزمع تمثيلها .

(١٨) كان أقوياء الجسوم من أهل لندن يطلب إليهم فى حالات الطوارىء أن يكونوا جنوداً فى الحرس الوطنى ، فكانوا يذهبون لقضاء يوم واحد فى السنة إلى موضع يدعى « أيل أند جرين » خارج المدينة ، وكان هذا يعد من النكت التى يندر بها ، ويدعى فى الإصطلاح « ازدواج الصف » أى الوقوف صفين للتدريب على حركات المشاة .

أضفى على هذا الإنسان من الأمجاد والمكارم كل ما فى الإمكان ، ولكنى لست من هذا كله على يقين .

الشريف الأول : لقد تجاوز فى خسته الخسة ذاتها حتى بات منها كالعلم الفرد ، والفذ الأوحد ، فلا جناح عليه ولا تثريب .

برترام : اللعنة عليه ، إنه هر أبداً .

الترجمان : إذا كانت صفاته بهذا القدر البخس فلا حاجة بى إلى أن أسألك هل يفسده الذهب ، فيتمرد ؟

بارولس : إنه يا سيدى من أجل بضعة دراهم ليبيع عمره ، ويتنازل عن إخلاصه ، وميراثه ويحرم الوارث من تراثه أبد الآبدين .

الترجمان : وما قولك فى أخيه ، الضابط ديمان الآخر ؟

الشريف الثانى : لماذا يسأله عنى . .

الترجمان : من يكون . .

بارولس : غراب فى العش ذاته ، لا يماثل كثيراً أخاه فى الطيبة والخير ، ولكنه يفوقه كثيراً فى الخبث والشر ، ويجاوزه جبناً ، وإن كان أخوه مشهوراً بأنه من أجبن الجبناء ، وهو فى التقهقر أسرع من أى خادم فراراً ، وفى التقدم إلى الحومة ينكل نكولاً .

الترجمان : إذا أنقذت حياتك هل تتعهد بخيانة دوق فلورنس ؟

بارولس : أى نعم ، وقائد فرسانه الكونت روسيون .

الترجمان : سأتحدث همساً مع القائد لأعرف بماذا يأمر .

(على انفراد)

بارولس : لا طبول بعد الآن ، اللعنة عليها جميعاً ، يخيل لى أننى أستأهل كل ما جرى ، أمن أجل نيل رضاء ذلك الغلام الشهوانى الذى يدعى الكونت ونخادعته أعرض نفسى لهذا الخطر ، ولكن من كان يظن أن هناك كميناً وأننى واقع فيه .

الترجمان : لا مفر يا سيد غير الموت ، فالقائد يقول ، إن مخلوقاً مثلك ، كشف بخيانة وغدر أسرار الجيش الذى يعمل فيه ، وعرض بأناس لهم مكانتهم الرفيعة ، وأقدارهم السامية ، هذا التعريض الشنيع ، لا يمكن أن يخدم الدنيا خدمة صادقة ، ولا رجاء للعالم فيه ، فلا مفر لك من الموت ، أقبل أيها السياف اقطع رأسه .

بارولس : يا مولاى وسيدى ، ابق على حياتى ، أو دعنى أرى بعينى مماتى .

الترجمان : ليكن ما تريد فودع جميع أصحابك — (يرفع العصابة عن عينيه) — انظر حولك هل تعرف أحداً هنا ؟

برترام : نعمت صباحاً أيها الضابط الكريم .

الشريف الثانى : بركات الله عليك يا ضابط بارولس .

الشريف الأول : سلمت أيها الضابط النبيل .

الشريف الثانى : أية تحية أحملها عنك إلى مولاى لافيه ، لأننى عائد إلى فرنسا .

الشريف الأول : هلا أعطيتنى أيها الضابط الكريم نسخة من الأنشودة التى

كتبتها إلى ديانا فى حق الكونت روسيون . ولولا أننى جبان كما وصفت . لأرغمتك على إعطائى إياها إرغاماً . ولكن وداعاً .

(يخرج برترام والشريفان)

الترجمان : لقد ضعت أيها الضابط . وذهبت حياتك . ولم تبق إلا ملفعتك هى وحدها التى لا تزال معقودة .

بارولس : ومن ذا الذى لا يتحطم ، إذا دبر له كيد ؟

الترجمان : إذا استطعت أن تلتمس لك بلداً لم يصب فيه بمثل هذا العار غير نسائه ، جاز لك أن تنشئ فيه أمة قليلة الحياء ، وداعاً يا سيدى ، إننى سأمضى إلى فرنسا أيضاً ، وستتحدث فيها عنك أبداً .

(يخرج)

بارولس : ولكنى مع ذلك كله شاكر ، ولو أنى أوتيت قلباً كبيراً لانفجر من هول هذا انفجاراً ، لن أكون بعد اليوم ضابطاً ، بل سآكل . وأشرب وأنام ككل عبد من عباد الله ضباطاً أو أنفاراً ، ولألزم قدرى ، وأعرف شأنى وخطرى ، فذلك وحده هو الكفيل لى بالحياة ، فقل لمن يرى نفسه متفاخراً ، « تقاجاً » خفْ يوماً كهذا ، وسيأتى يوم يبدو كل تقاج فيه حماراً ، وأنت أيها السيف أصدأ فى جرابك ، ويا أيها الحياء أبرد من أحرارك ، ولتحى يا بارولس آمناً مطمئناً بعارك ،

وما دمت بالعبث والتهريج قد هزئ بك ، فليكن فى الهزء توفيقك ونجاحك فإن لكل إنسان حى مكاناً ، ووسائل وأعواناً . . وإنى للاحق بهم .

(يخرج)

المشهد الرابع

فلورنسا – حجرة فى بيت الأرملة

(تدخل هيلين والأرملة وديانا)

هيلين : أحسبك قد أدركت أننى لم أسئ إليك ، والله على ما أقول شهيد ، وأمام عرشه أجثو ، قبل أن أتم القصد ، وأبلغ المراد ، لقد أديت إليه المأرب المطلوب ، عزيزاً لديه كالحياة ، مما يجعل الوفاق ، يطل من صدر التترى الصلد كالحجر الصوان ، ويحدو إلى الشكر والامتنان ، وقد نبئت أنه الآن فى مارسيليا ، ولدينا وسائل نقل مريحة إليها ، فاعلمى أنهم يحسبوننى ميتة ، ذهبت من هذه الدنيا ، وقد سرح الجيش ، وأسرع زوجى عائداً إلى الوطن متهافتاً ، فبعون الله العلى العظيم ، وبعد استئذان مولاى الملك الكريم ، لا نلبث أن نلاقى الترحيب قريباً .

الأرملة : أيتها السيدة الرفيقة ، لم تجدى فى يوم من الأيام خادماً يقبل أمرك بأحسن مما تقبلناه .

هيلين : ولا سيدة ، بل لا صديقة ، أصدق الخاطر جهداً فى العمل على مجازاة صنيعك ، ومكافأة محبتك ، وثق أن الله أرسلنى لكى أكون لابنتك بائنة ، كما قدر لها أن تكون لى على زوجى

ظهيراً ونصيراً ، ولكن لكم الله أيها الرجال ! ما أغرب شأنكم ، حتى ليتسنى بلطف الحيلة ، الاستعانة عليكم بما تكرهون ، والانتفاع بما تغضبون ، حين تخدعون فى ظلمة الليل ، فيمسى ما تكرهونه محبباً ، ويبيت ما تنفرون منه مشتهى مجتبى ، كذلك هى الشهوة ، تلهو بما لا ترضاه ، وتعبث بما لا تهواه ، وتستعيض بالحاضر عما هو بعيد ، ولكنا إلى هذا الحديث عائدون وله على الأيام مزيد ، وأنت يا ديانا ، لابد من أن تعانى بعض العناء ، من أجلى ، وتنفيذاً لتعاليمى الأليمة .

ديانا : اجعلى الموت والوفاء ، مقترنين بما تأمرين ، فإنى طوع أمرك ، متحملة ما تريدين .

هيلين : لا يزال أمامك من العناء ما أرجو أن تحتمليه ، وأنا عند كلمتى ، بارة بعدتى ، وسيدور الزمان فيأتى بصيف ، يصبح للشجر فيه ورق وشوك ، وجمال وأذى ، وعذوبة ووخز ، فلنرحل ، إن مركبتنا على الأهبة ، والوقت يدعونا أن نعجل ، ولا ضير من البداية ، إذا سعدت النهاية ، والمثل الذى يقول خواتيم الأمور تيجانها صحيح على الدوام ، والخاتمة هى تاج الأمور ، ومهما تكن الوسيلة فإن الغاية هى التى تشهر بين الناس .

المشهد الخامس

حجرة فى قصر الكونتسة

(تدخل الكونتسة ولافيه والمهرج)

لافيه : كلا ، كلا ، كلا ، إن ابنك قد أضله مخلوق أفاق مهرج ، خبثه لأن يفسد شبان أمة بأسرها ، ويضل فتيان قوم بضلاله وأفنه ، ليت زوج ابنك كانت حية إلى الساعة ، وابنك الآن هنا ، أقرب إلى حظوة الملك منه إلى هذه النحلة الحمراء الذيل[١٩] الحقيرة التى أتحدث عنها .

الكونتسة : وددت لو أنى لم أعرفه ، لقد كان فى عينى ممات أفضل سيدة تحمد الطبيعة على خلقها ، ولو أنها كانت من لحمى ودمى ، وكبدتنى أعز أنين الأم ، وأحب أوجاع الوالدة ، لما كان لها عندى من الحب ما هو أقوى جذوراً ، ولا هو أشد تأصلاً .

لافيه : لقد كانت سيدة صالحة ، لقد كانت سيدة صالحة ، لا نظفر باقتطاف عشبة مثلها قبل أن ألف بقلة من غير نوعها .

المهرج : حقًّا يا سيدى ، لقد كانت السعتر الحلو الذى يوضع فى « السلطة » أو قل هى العشب الإلهى[٢٠] .

---

(١٩) يقصد بارولس ، والنحلة الحمراء الذيل هى التى لا خير منها .

(٢٠) نبات معروف ، وهو (الزعتر) وصحيحه بالسين ، وفيه حلو وأنواع منه مرة ، =

لافيه : إنها ليست أعشاب السلطة أيها الوغد ، بل أعشاب الشمبم[٢١] ذات شذى وعطر .

المهرج : أنا لست بمختصر يا سيدى فى علم الحشائش ، ولا خبرة لدى بالأعشاب[٢٢] .

لافيه : أيهما تقر أنك هو ، أوغد شرير ، أم ماجن مهرج ؟

المهرج : ماجن يا سيدى فى خدمة امرأة ، ووغد فى خدمة رجل .

لافيه : وما حد براعتك ، ومدى امتيازك ؟

المهرج : أنزع من الرجل زوجته ، وأؤدى أنا عمله .

لافيه : فتكون وغداً فى خدمته فعلاً .

المهرج : وأعطى زوجته عصاى يا سيدى لأخدمها[٢٣] .

لافيه : أشهد لك ، فأنت وغد ومهرج حقًّا .

المهرج : فى خدمتك .

لافيه : كلا ، كلا ، كلا .

المهرج : ولماذا يا سيدى ؟ إنى إذا لم أستطع خدمتك ، استطعت

= والسلطة أو « السلاد » فى اللغات الأجنبية هى المشهيات من الخضر ، والعشب الإلهى هو نبات يعرف بالسذب أو السذاب .

(٢١) أعشاب الشمبم هى التى تشم لزكى رائحتها .

(٢٢) يختصر ورد ذكره فى سيرة دانيال ، وقد أصيب بالجنون فكان يأكل الحشيش كالثيران وكان جسمه مبللاً بندى السماء .

(٢٣) هى العصا التى اعتاد المهرجون حملها لإضحاك الناس وهو هنا يقصد معنى آخر (أى لكى تستخدمها فى ضرب الزوج ، وهى عصاً صغيرة ذات رأس فى صورة مهرج ، ولعلها أيضاً الشخشيخة) .

خدمة أمير عظيم مثلك .

لافيه : ومن يكون ؟ أفرنسى هو ؟

المهرج : يمين الله يا سيدى إن له اسماً انجليزياً ، ولكنه أحر وجهاً فى فرنسا منه فى انجلترا(٢٤) .

لافيه : ومن هو هذا الأمير .

المهرج : الأمير الأسود يا سيدى ، أو أمير الظلام ، أو بعبارة أخرى الشيطان .

لافيه : خذ هذا الكيس فهو لك ، ولست أعطيك إياه لكى أغريك بترك مولاك هذا الذى تتحدث عنه ، بل لتظل فى خدمته .

المهرج : إننى حطاب يا سيدى أحب دائماً النار العظيمة ، وهذا المولى الذى أتحدث عنه يوقد ناراً حامية ، وهو بلا شك أمير العالم ، فلتدع سموه ، مستوياً على ملكوته ، أما أنا فحسبى الدار ذات الباب الضيق ، لأنها فى نظرى خلو من الفخفخة والرواء ، لا يدخلها ذوو الفطرة والجلال ، وقد يدخلها بعض من القانعين أما الأكثرون فمن البرودة والوهن ورقة البدن بحيث يؤثرون الطريق المزدهر المؤدى إلى الباب الفسيح والنار الموقدة .

لافيه : اذهب حيث شئت ، فقد بدأت أمل منك ، أقول لك هذا

---

(٢٤) يشير إلى مرضى «الزهرى» المعروف بكثرته فى فرنسا .

مقدماً ، لأنى لا أحب أن أتشاجر معك ، اذهب فى سبيلك ، واحرصى على رعاية جيادى وحسن خدمتها ، ولكن إياك والألاعيب والحيل فى معاملتها .

المهرج : إذا استخدمت الحيل معها ، فهى بعض عاداتها ولازماتها ، فهى من طبعها بمقتضى ناموس الطبيعة وشرعتها[٢٥] .

(يخرج)

لافيه : وغد ماكر ، وخبيث[٢٦] .

الكونتسة : إنه لكذلك ، وكان دأب زوجى الراحل أن يلهو كثيراً به ، ويستروح غالباً إليه ، فهو هناك باق بأمره ، ملازم القصر بحق توصيته ، وهذا هو ما يجعله يعتقد أن له الإذن فى قلة الحياء ، والتصريح بالمجون والبذاء ، والواقع أنه لا يخطو خطواً ، بل يعدو عدواً أين يشاء .

لافيه : إننى أستلطفه كثيراً ، فليس ثمة من بأس ، وكنت أهم بأن أنبئك ، منذ علمى بوفاة السيدة الكريمة ، وقرب مقدم ابنك إلى وطنه ، أننى تكلمت مع مولاى الملك فرضى جلالته أن يتحدث بشأن زواج ابنتى ، وتفضل بسبب حداثتها ، وصغر

---

(٢٥) الألاعيب الخيل ، هى العادات واللازمات السيئة التى تبدو على الخيل الحرنة أو الشريرة أو العنيفة المزاج ، فهو لا يفعل شيئاً غريباً ، لأن ذلك طبيعى فيها .

(٢٦) اتفق أكثر الشراح على أن المعنى المراد هو «وغد ماكر» ولكن كلمة «غير سعيد» لم يضعها الشاعر عبثاً ، ولا يزال لها معناها ، لأن الماجن عادة رجل متشائم مستنكر للحياة ، فلا تخلو كلماته الحلوة من مرارة .

سنهما ، ورضواناً منه ، أن يكون هو أول من يقترح ، ووعد جلالته أن يفعل ، وينسى ما كان فى نفسه من الموجودة على ولدك ، فالأمر إذن مهيأ ، والظرف مناسب ، فما تقولين يا مولاتى ؟

الكونتسة : بكل سرور يا مولاى ، وأتمنى من كل قلبى أن يتم ذلك .

لافيه : إن جلالته سيأتى رأساً من مارسيليا ، سليماً معافى كما كان فى الثلاثين ، وسيصل إلى هنا غداً إن لم يكن الذى نبأنى بهذا النبأ قد خدعنى ، ولكنه قلما تكذب أنباؤه فى مثل هذه الأمور .

الكونتسة : يسرنى أن أرجو لقاءه قبل مماتى ، وقد تلقيت كتباً تقول إن ابنى سيكون هنا الليلة ، فأرجو يا مولاى أن تبقى معى حتى تلتقيا .

لافيه : سيدتى ، لقد فكرت من قبل فيما يصح أن أعلل به المثول فى حضرته .

الكونتسة : سل تجب يا مولاى ، حسبك شرفك الرفيع شفيعاً[٢٧] .

لافيه : مولاتى ، لقد اتخذته أبداً مرشداً هادياً ، وأحمد ربى على أنه لا يزال مجدياً .

---

(٢٧) رأينا الشراح يمرون بهاتين العبارتين بدون تعليق وإن كانتا تحتاجان إلى إيضاح ، فقد كان لافيه هو الذى عرض على الملك مسألة تزويج ابنته لبرترام ، فلماذا نراه هنا متردداً فى مقابلته ، وما الذى تشير إليه الكونتسة فى ردها هنا عليه ؟

(يدخل المهرج)

المهرج : أى مولاتى . . هنا عن كثب مولاى ابنك ، وعلى وجهه قطعة من القطيفة[٢٨] ، ولا تعلم إلا القطيفة ذاتها ، هل من تحتها ندبة من جرح ، ولكنها قطعة كبيرة[٢٩] جعلت خده الأيسر منتفخاً متضخماً ، وتركت خده الأيمن حاسراً وعارياً .

لافيه : إن الجرح النبل ، أو الجرح الذى ينال بنبل ، ميسم الشرف ، فليكن جرحه كذلك .

المهرج : ولكنه وجهك المقطع للشى والتحمير . . !

لافيه : هيا نذهب يا مولاتى لنرى ابنك ، إننى مشتاق إلى الحديث مع هذا الجندى الشاب النبيل .

المهرج : يمين الله إنهم كثر ، على رءوسهم قلانس رقاق فخمة ، وريش جميل ، تنحنى بها الهامات ، وتومئ لكل إنسان بالتحيات .

(يخرجون)

---

(٢٨) القطيفة هنا كناية عن شعر اللحية ، والنكتة التى أرادها المهرج تشير إلى المرض الفرنسى «الزهرى» وكانت العادة أن ظهر طفحه على الوجه أن يعالج بلزقة طبية .

(٢٩) فى الأصل مقدار معين من القطيف يغطى الخد الأيسر ويجعله كالوارم إشارة إلى «الزهرى» .

الفصل الخامس

المشهد الأول

شارع فى مارسيليا

(تدخل هيلين والأرملة وديانا وتابعان)

هيلين : لابد من أن يكون هذا السفر السريع ليلاً ونهاراً ، قد أجهدكما كثيراً ! ولكن لم يكن لنا معدى منه ولا مفر ، وما دمنا قد وصلنا الليل بالنهار ، ورضيتما الجهد من أجلى وتجشم الأسفار ، فثقا أن دينى لكما يزداد على الأيام ، حتى لا يستطيع شىء أن ينزعكما من مودتى .

(يدخل مندوب البزاة)

إن هذا الرجل إذا سنحت الفرصة يستطيع بنفوذه وشفاعته أن ينهى أمرنا إلى مسامع جلالته ، سلام الله عليك يا سيدى[1] .

مندوب البزاة : وعليك السلام .

---

(١) فى الأصل «الله يحميك أو ينجيك» .

هيلين : سيدى ، لقد رأيتك فى بلاط فرنسا .

المدرب : كنت أحيانا هناك .

هيلين : أظن يا سيدى أنك لا تزال على شأنك من طيب الأحدوثة ، وكريم الخلال ، ولهذا تدفعنى ظروف ملحة إلى الجرأة عليك ، والانتفاع بفضلك ، متخطية بذلك آداب اللياقة ، وسأظل شاكرة لك ما حييت .

المدرب : بماذا تأمرين ؟

هيلين : أن تتفضل فترفع إلى الملك هذا « المعروض » المتواضع وتعيننى بكل ما أوتيت من جاه على المثول بين يديه .

المدرب : إن الملك ليس هنا .

هيلين : أتقول يا سيدى إنه ليس هنا ؟

المدرب : نعم ، فقد سافر الليلة الماضية فى عجلة لم تكن يوماً من عادته .

الأرملة : رباه . . ذهبت جهودنا سدى ؟

هيلين : لا تزال الأمور مرهونة بخواتيمها ، ولكنى يا سيدى وإن لم تكن الظروف مواتية ، والوسائل غير ملائمة ولا مجدية ، أسألك أين تُراه ذهب ؟ .

المدرب : أكبر ظنى أنه قصد إلى « روسيون » ، وأنا إليها الساعة متجه .

هيلين : رجائى يا سيدى ما دمت على الأرجح ستقابل الملك قبل أن يتاح لى المثول لديه ، أن ترفع إليه هذا الملتمس وتزكيه ، وهو

أمر لا أحسبه ملقياً عليك ملاماً ، بل سوف يفيك على ما بذلت من جهد شكراً وعرفاناً ، وسألحق بك بكل سرعة فى إمكاننا ، وعلى قدر ما تواتينا الوسائل .

المقرب : سأفعل ذلك من أجلك .

هيلين : وستجد نفسك مشكوراً مهما يحدث بعد ، فلنعد إلى خيلنا ولنذهب هيا بنا .

(يخرجون)

المشهد الثانى

(يدخل المهرج ، وبارولس)

بارولس : يا سيد لافاش[٢] ، خذا هذا الكتاب إلى السيد لافيه ، لقد كنت فتيا مضى يا صاح معروفاً لديك أحسن من هذا وأجمل منظراً، حين كنت فى ألفة وحسن الثياب ، وروعة الهندام ، ولكننى يا سيد «موحل» فى مزاج «الحظ» وتقلبات «أحواله»[٣] وتبدو على أمارات تنكره لى وتغيره ، ظاهرة جميلة .

المهرج : حقًّا إن تنكر الحظ لقذر إذا كانت رائحته كما قلت تزكم الأنوف كما أرى ، ولن آكل بعد اليوم من سمك الحظ ومقالاته ، من فضلك دع الهواء يدخل[٤] .

بارولس : كلا . لا حاجة بك يا صاح إلى إمساك أنفك ، وحبس نشيقك ، فإن ما قصدت بقولى إلا الاستعارة . .

المهرج : فعلاً يا سيدى ، وإذا كانت استعارتك كريهة الرائحة أمسكت

---

(٢) أول مرة ينادى فيها المهرج باسمه ، ومعناه «البقرة» ، ويلاحظ أن بارولس يكلم المهرج بأدب ورجاء ، مما يوحى بأنه بعد حادث الكمين وافتضاح أمره أصبح ذليلاً مهيض الجناح .

(٣) استعارة من «الوحل» والأوحال ، ثم جنال مقلوب فى كلمة «أحوال» .

(٤) أى أن رائحته كريهة خانقة ، فهو يطلب منه أن يتنحى قليلاً حتى يدخل الهواء النقى فيزيل هذه الرائحة .

أننى لأحمى شميمى منها ، أو من استعارة أى إنسان آخر ، من فضلك أبعد عنى .

بارولس : أرجوك يا سيدى أن تسلم كتابى هذا .

المهرج : أف ، أرجوك أن تبتعد ، هل تريد منى أن أسلم كتاباً من «كرسى» الراحة[٥] ، إلى سيد نبيل من ذوى السماحة ، انظر ها هو ذا قادم بنفسه .

(يدخل لافيه)[٦]

هذا يا مولاى وغد محظوظ أو هو قط الحظ ، ولكنه ليس قط زيد[٧] يهب شذى المسك منه ، بل هر سقط فى بركة إدباره الكدرة ، وترعة أمواهه القذرة ، فعلته كما يقول الأوحال ، وساءت منه الحال ، ورجائى يا مولاى أن لا تتناول من السمك غير «المبروك» الذى ينمو فى المياه الرائقة[٨] ، لأنه يبدو رديئاً ، عفناً ، خبيثاً ، ووغداً شقيًّا ، وإنى فى بسمة حظى وإقبالى ، أرثى لتنكره له وإدباره ، وأتركه الآن لمولاى .

(يخرج)

---

(٥) هكذا فى الأصل وهو «كرسى» المرحاض أو بيت الراحة ، لكراهة ريحه .

(٦) حين يدخل لافيه لا يعرف بارولس لأول وهلة .

(٧) قط الحظ أو القط القفاز الذى يراقبه الناس ليعرفوا أية جهة يقفز إليها فيتبينوا من ذلك حظهم .

(٨) نوع من السمك يسمى «المبروك» أو «الشموط» لا يعيش إلا فى الماء الخطر والترعة الجارية أو البرك النظيفة ، أى لا تأكل من هذا النوع الذى يعيش فى الأوحال أو سمك «البرك» والمستنقعات .

باروليس : مولاى ، إننى رجل قسا عليه الحظ فخدشه .

لافيه : وماذا تريد منى أن أفعل ، لقد فات ، وقت تقليم أظفاره ، فما الذى فعلته فى المكر بالحظ حتى خدشك ، عهدى به السمح الكريم لا يخدش ، والعدل لا يبقى طويلاً على كل وغد أو خسيس ، لقد لقيت جزاءك ، خذ هذه لك (**يعطيه قطعة من النقود**) ، فالتمس من الكنيسة التوفيق بين الحظ وبينك[٩] . فإن لدى عملاً آخر .

باروليس : أتوسل إليك أن تستمع إلى كلمة واحدة منى .

لافيه : إنك ترجو درهماً واحداً آخر ، فخذه ووفر كلمتك عليك .

باروليس : إن اسمى يا مولاى الكريم هو « باروليس »[١٠] .

لافيه : أنت إذن تطلب أكثر من كلمة ، يمين الله[١١] ، هات يدك ، كيف حال طبلتك[١٢] .

باروليس : آه يا مولاى الكريم ، لقد كنت أول من كشفنى[١٣] .

---

(٩) أى ألجأ إلى الأبرشية تُعطك حسنة من صندوق النذور .

(١٠) باروليس – جمع بارول – ومعناها بالفرنسية كلمة واسمه بصيغة الجمع ، ولهذا رد عليه لافيه بقوله إنك إذن تطلب أكثر من كلمة .

(١١) فى الأصل « استرْ عاطفتى » وهو قسم معناه « بحق العذاب الذى عذب به المسيح » وقد آثرنا أن نجعله هكذا فى العربية .

(١٢) إشارة إلى حادث « الكين » والطبلة التى فضحته ، مما يوحى بأنه علم بها من الشريفين الفرنسيين .

(١٣) فى الأصل « أنت أول من وجدنى » ولكن المراد كشفنى أو أناط اللثام عن ميولى ، ومن هنا جاء=

لافيه : أحقًّا ، وقد كنت أيضاً أول من فقدك .

بارولس : إن سماحتك يا مولاى لكفيلة بأن ترد إلى شيئاً من الكرامة لأنك أخرجتنى منها .

لافيه : اخسأ أيها الوغد ، أتطلب إلىّ أن أعمل عمل الله والشيطان معاً ؟ أحدهما يدخلك فى رحمته ، والآخر يخرجك منها (يسمع صوت النفير) ، ها هو ذا الملك قادم ، كما يبدو من صوت النفير ، سل عنى بعد يا هذا ، فقد كنت أتحدث عنك فى الليلة الماضية ، ولئن كنت أحمق ووغدًا فلا تحرمك من طعامنا ، أبدًا ، هلم اتبعنى .

بارولس : أحمد الله إليك .

(يخرجان)

= الرد « كنت أيضًا أول من فقدك » .. هكذا فى الأصل ولكن المعنى المراد هو أننى كنت أول من عرفك على حقيقتك ، فلم أعد أحترمك .

المشهد الثالث

حجرة فى قصر روسيون

(طبول – يدخل الملك والكونتسة ولافيه والشريفان الفرنسيان والحاشية)

الملك : لقد فقدنا بموتها درة يتيمة وقد انحطت سمعتنا بذلك ولكن ابنك بحماقته وجنونه لم يدرك قيمتها ، ولم يعرف لها قدرها كاملاً .

الكونتسة : قُضِيَ الأمر يا مولاى ، وأرجو إلى جلالتك أن تعده فورة طبيعية من وقدة الشباب حين يتغلب الزيت والنار على قوة العقل فيكتسحانه ويظلان محترقين مشتعلين اشتعالاً .

الملك : أيتها السيدة الجليلة لقد صفحت ونسيت كل شىء مع أن انتقامى منه كان مريش السهام ، يرقب اللحظة الملائمة ليطلق رمياته ، ويرسل قذيفاته .

لافيه : أجد لزاماً على أن أقول . . ولكنى أبدأ أولاً باستماحة جلالتكم عفواً وغفراناً . . إن الأمير الشاب أساء إلى جلالتكم ، وإلى أمه ، وزوجه ، إساءة بالغة ، ولكنه أساء إلى نفسه أشد الإساءات كلها ، وظلمها ظلماً مبيناً ، لقد فقد زوجاً كان جمالها قبلة أوسع الأعين خبرة بالحسان ، وكلامها يأسر الآذان ، ويفتن الأسماع ، وكمالها يخضع لها القلوب الأبية ،

ويحملها على أن تدعوها فى خشوع مولاتى .

الملك : إن مدح ما فقدناه ، يعزز ذكراه ، والآن ادعوه إلينا ، فقد رضينا عنه وصفحنا ، وأول لقاء كفيل بإزالة ذكرى كل ما مضى من إساءات ، فلا تدعوه يسألنا غفراناً ، فقد نسينا ماكان منه ، بل أكثر من النسيان ، لقد دفنا كل مخلفاته ، وبقية تذكاراته فليمثل فى حضرتنا جديداً علينا ، كأن لم يأثم من قبل ولم يسئ ، وأبلغوه أن هذه هى مشيئتنا .

أحد السادات : سمعاً وطاعة يا مولاى .

(يخرج)

الملك : وما قوله فى ابنتك ، هل تحدثت فى الأمر ؟

لافيه : إن أمره كله رهن بمشيئة جلالتكم .

الملك : إننا إذن أمام خطيب كفء ، فقد تلقيت كتاباً تنوء به وترفع من ذكره .

(يدخل الكونت برترام)

لافيه : إنه يبدو جديراً به .

الملك : أنا لست بالنهار الرائق فقد تشهد عيناك فىَّ شمساً ساطعة ، والبردَ من سمائى منهمراً فى وقت واحد ، ولكن على مطلع الأشعة الباهرة ، تتراجع السحب المتكاثرة ، فلتقم حيث أنت فقد عاد الزمان صفواً .

برترام : أيها المولى العزيز مغفرة لما فرط منى ، وندمت عليه أشد الندامة .

الملك : انتهى كل شيء ، فلا تذكر الماضى بكلمة أخرى فقد انقضى ، ولك الساعة التى أنت فيها ، فلنمسك بالفرصة من جدائلها ، فقد أدبر العمر بنا ، وقدم الزمان ، فى دبيبه الخافت وخطوه الصامت ، متسللاً ، إلى أعجل ما نقرر قبل أن ننفذه ، وأسرع ما تشاء ، قبل أن ننجزه . .
أذاكر أنت ابنة هذا الشريف ؟

برترام : بإعجاب يا مولاى ، فقد وقع اختيارى أولاً عليها ، قبل أن يجسر فؤادى على أن يتخذ لسانى رسولاً ، أو يوفد مقولى إليها بشيراً ، ولم يلبث أثر جمالها فى ناظرى أن جعل الإزراء بكل جمال سواه يعيرنه مرآته ، فبدا كل وجه آخر منكور المعارف ، مسفوع اللون ، غير متناسب القسمات ، دميماً تنبو عنه النظرات ، ومن ثم كانت ، التى تلهج ألسنة الناس بمديحها ، والتى أحببتها منذ أن فقدتها ، تبدو قذًى فى عينى ، وأذًى لناظرى .

الملك : أحسنت التشفع ، وأجدت التبرير ، فإن حبك لها يمحو بعض المفردات من الحساب ، ولكن الحب الذى يأتى متأخراً هو أشبه بالعفو الرحيم الذى يأتى والياً ، بعد تنفيذ العقاب ، ويصبح من الحسرة أنه أقبل بعد ذهاب ، وأن من تولى كان

طيباً ، ومن توارى كان كريماً لا يعاب ، إن طيشنا ليبخص أخطر الأشياء لدينا أثمانها . ويقلل من أقدارها وموازينها . فلا نعرف خطرها حتى نخسرها . ولا ندرك فضلها . حتى نوسدها فى قبرها وإنا لنظلم أنفسنا كثيراً بمطاوعة نفورنا . فنقضى على أصحابنا . وندمر أحبابنا . ثم نبكى على ترابهم ، ويصحو حبنا فجأة من غفوته ، لينوح ندامة على فعلته ، فى حين ينام كرهنا المستهتر نومة الظهيرة مستخفاً بجريمته ، فليكن هذا بمثابة ناقوس الممات ، لهيلين الجميلة الكثيرة الحسنات ، والآن فانسها وابعث بأمارات حبك لمجدلين الحسناء ، وقد تم الاتفاق على القران ، بين ذوى الشأن ، وسنقيم هنا حتى تحضر يوم الزفاف الثانى لأرملتنا .

الكونتسة : ليجعله الله أسعد من الأول وأوفر بركات ، وأن يتمه بخير قبل أن يدركنى الممات .

لافيه : هلم يا بنى ، يا من سيقترن اسم عشيرتى باسمه على الزمان ، هلم قدم رمز حب منك إلى ابنتى يتلألأ فى روحها ، ويملأ جوانحها بريقاً وسناءً ، فتسرع فى القدوم إلينا (يقدم برترام خاتماً) وحق لِحبتى هذه ، وكل شعرة من شعراتها ، إن هيلين التى قضت كانت مخلوقة محببة ، وكان هذا الخاتم فى إصبعها ، آخر مرة زرت فيها البلاط .

برترام : لم يكن خاتمها .

الملك : دعنى أشهده ، فكثيراً ما كانت عينى تستقر عليه حين كنت أتكلم (يتناوله من لافيه ويدخله فى إصبعه) . هذا كان خاتمى أعطيته لهيلين وقلت لها إذا خانها الحظ واحتاجت إلى المعونة ، فليكن هذا الرمز مذكراً لى فأبادر إلى معونتها . فهل أوتيت من الدهاء ما استطعت به أن تحرمها مما كان لها أعز سناد ، وأكبر نصير .

برترام : مولاى المعظم ، مهما يسرك أن يكون الأمر كما قلت ، فلم يكن هذا الخاتم يوماً خاتمها .

الكونتسة : أى نبى ، إنى أقسم بحياتى أنى رأيتها تلبسه ، وكانت تعتز به اعتزازها بالحياة ذاتها .

لافيه : إننى واثق أننى رأيتها تلبسه .

برترام : أنت واهم يا مولاى ، فما وقعت عينها يوماً عليه ، لقد ألقى إلى وأنا فى فلورنسا من شرفة ، ملفوفاً فى ورقة تحوى اسم التى ألقته ، لقد كانت كريمة نبيلة النفس ، وقد ظننت أننى خطبتها ، ولكنى لما أفصحت لها عن شئونى ، ونبأتها صراحة أننى لا أستطيع الاستجابة إلى هذا الشرف الذى فاتحتنى فيه ، كفت عنى أبية آسية ، ورفضت أن تسترد الخاتم ثانية .

الملك : إن بلوطس[١٤] نفسه العليم بطبائع المعادن وخواصها ، لم

---

(١٤) بلوطس هو إله اليسار والغنى عند الإغريق ، فهو الخبير بالمعادن والجواهر الكريمة .

يؤت من أسرار الطبيعة مثل علمى بهذا الخاتم وقيمته ، إنه خاتمى ، بل خاتم هيلين ، أيًّا كانت من أعطتك إياه ، فإن كنت واثقاً من نفسك فاعترف أنه خاتمها ، وقل بأية وسيلة من وسائل العنف حصلت عليه منها ، لقد أقسمت أمامى بكل القديسين ألا تخلعه من أنملتها أبداً ، إلا إذا أعطتك إياه فى فراشها الذى لم تذهب إليه ، أو تبعثه لنا إذا حلت بها أعظم كارثة .

برترام : إنها لم تره فى حياتها .

الملك : وحق شرفى الذى أغلو به ، إنك لتقولن كذباً ، وتدخلن فى روعى مخاوف وهواجس أود لو أنى سددت عليها السبيل ، فإذا ثبت لى أنك مجرد من كل شعور إنسانى . . وهو ما لن يثبت ، وإن كنت إلى الآن لا أعلم – لقد كنت تكرهها كراهية مميتة ، وهى اليوم ميتة ، وليس ثمة شىء أدعى إلى تصديق مماتها ، من رؤيتى هذا الخاتم الذى كان فى أنملتها ، إلا أن أكون أنا الذى توليت بيدى إغماض عينيها . . . اغربوا به عنى . . . إن ما جربته فيما مضى من أمرك ، مهما تكن نتيجة هذه المسألة التى ننظر فيها ، تجعلنى الملوم على أننى من حماقتى لم أسترب بك إلا قليلاً ، وكانت الحكمة تقتضينى أن أسترب كثيراً ، اذهبوا به . . . فسوف نبحث فى هذا الأمر

فيما بعد ونتقصى وجه الحق فيه[١٥] .

برترام : إذا أثبت أن هذا الخاتم كان يوماً خاتمها . فقد دللت على أننى عاشرتها فى فلورنسا . وهى لم تطأ أرضها بقدميها .

(يخرج)

(يدخل أحد السادات)

الملك : لقد استولت على نفسى أفكار أليمة وخواطر قاتمة .

السيد : أى مولاى العظيم . لست أدرى هل ترانى أخطأت أم لم أخطئ . هذه عريضة من امرأة فلورنسية . لم تستطع لكثرة تنقلات مولاى ورحلاته . أن تقدمها بنفسها إلى سدتك . فتعهدت لها . وقد غلبنى جمالها . وحسن قولها . وكثرة توسلاتها أن أقدمها لجلالتك . وقد علمت الآن أنها هنا فى انتظار أمرك . ويبدو لى أن الأمر خطير . فقد أنبأتنى فى حديثها العذب وشرحها اليسير أن أمرها يهم مولاى .

الملك : (يقرأ الخطاب) . . «يخجلنى أن أقول إنه استطاع بعد توكيداته . وكثرة توسلاته . فى سبيل الزواج بى . بعد ممات زوجته . أن يغلبنى على أمرى . وها هو ذا الكونت روسيون قد ترمل . فحنث فى عهوده . ونال من شرفى بكنوده . متسللاً من فلورنسا غير مودع ولا مستأذن . وقد جئت فى

---

(١٥) فى الأصل «تغريله غريلة» .

أثره إلى وطنه أنشد العدالة ، فامنحنيها أيها الملك ، لأنك خير ممثليها ، وأعلى منارها ، وألا يصبح الكاذب الغواء موفقاً مظفراً ، ويذهب شرف فتاة مسكينة مطلولاً مهدراً » .

(ديانا كابليت)

لافيه : إنى لأوثر أن أشترى لابنتى زوجاً من السوق وأبيع هذا ، لن أرضى به نسيباً .

الملك : لقد كانت السموات عليك حانية ، يا لافيه ! ، فكشفت عن هذا الأمر النقاب ، إيتونى بهؤلاء الطالبين ، أسرعوا ، ولتعيدوا الكونت إلى حضرتنا .

(يدخل برترام)

أخشى أيتها السيدة أن تكون حياة هيلين قد اختطفت غيلة وغدراً .

الكونتسة : الآن لتأخذ العدالة الآثمين بإثمهم .

الملك : عجبى لك يا فتى ، تكره النساء أزواجاً ، وتتخلص منهن حين تقسم اليمين على قبولهن ، ثم لا تزال تطلب قراناً ، من تكون هذه المرأة . .

(تدخل الأرملة وديانا وأحد السادات)

ديانا : أنا يا مولاى فلورنسية منكودة ، من أسرة كابليت القديمة ، وقد فهمت أنك عرفت بأمر قضيتى ، وعرفت أن حالتى تستحق الرثاء . .

الأرملة : وأنا أمها يا مولاى ، تعرض كبرها وشرفها للمساءة ، وقد شرحناها فى هذا الكتاب الذى رفعناه ، فإذا لم تعالج الأمر يا مولاى بحكمتك ورحمتك ، قضى على حياتى وشرفى معاً .

الملك : أقبل أيها الكونت ، هل تعرف هاتين المرأتين ؟

برترام : ليس فى وسعى يا مولاى أن أنكر معرفتى إياهما ، ولن أنكر هذه المعرفة ، فهل لديهما غير هذه التهمة ؟

ديانا : لماذا تنظر إلى زوجك هكذا مستغرباً ؟

برترام : إنها ليست زوجاً لى يا مولاى .

ديانا : إذا أنت تزوجت بعدى ، نقضت هذه اليد ، وهى يدى ، ونقضت اليمين ، وهى يمينى ، ونزعت نفسى ، وهى بين جنبى ، لأننى بحق اليمين جزءًا لا يتجزأ منك ، ومن تتزوج بك ، لابد أن تتزوجنى ، فإما نحن معاً ، أو لا .

لافيه : إن سمعتك لا تلائم ابنتى ، وأنت لست لمثلها أهلاً .

برترام : إن هذه المخلوقة يا مولاى فتاة حمقاء مستهترة كنت أحياناً ألهو بها وأعبث ، فأحسن بى الظن يا مولاى ، ولا يخامرك فى شرفى سوء ، فتظن أننى إلى مثل هذا الدرك نزلت به .

الملك : لن أحسن بك الظن ، حتى تكسب فعالك حسن ظنى حقًّا ، فأثبت شرفك ، وأزل ما علق به فى خاطرى .

ديانا : تفضل يا مولاى فسله أن يقسم هل تراه لم يمس عذرتى ، وينل من عفتى

الملك : ماذا تقول لها ؟

برترام : إنها وقحة يا مولاى ، وكانت ألعوبة عامة يلهو بها المعسكر .

ديانا : إنه يظلمنى بهذا القول يا مولاى ، فلو أنى كنت كما يصف لاشترانى بثمن المرأة العامة ، فلا تصدقه ، ألا أنظر إلى هذا الخاتم الذى لا مثيل له فى غلو قدره ، ورفعت جوهره ، ومع ذلك لقد أعطاه إلى « ألعوبة عامة » يلهو بها المعسكر ، لو أننى كنت كما وصف .

الكونتسة : لقد علاه الخجل ، إذ أصابته فى الصميم ، إن هذا الخاتم الذى ظل ستة أجيال تراثاً يتوارثه الخلف عن السلف ، وقد أعطى إليها فلبسته ، هى إذن زوجه ، وهذا الخاتم على الزواج يقوم مقام ألف دليل .

الملك : أحسبك قلت إنك رأيت فى البلاط أحداً يصح أن يكون شاهداً .

ديانا : أجل يا مولاى ، وإن كرهت أن ألجأ إلى هذه الأداة السيئة ، إن هذا الشاهد يدعى « بارولس » .

لافيه : لقد رأيت الرجل اليوم ، إذا تجاوزت فوصفته بأنه رجل .

الملك : ابحثوا عنه وأتوا به إلينا .

(يخرج الخدم)

برترام : أمثله يصلح شهيداً ، وهو المعروف بأنه أسوأ عبد ختلاً وغدراً ، وأكثرهم فى هذه الدنيا معاباً ونكراً ، لتأبى خليقته

الدنسة أن تقول الحق ، فهل يقضى على بهذا أو ذاك حسبما يقوله هذا الإنسان الذى لا يأبى أن يقول أى شىء ؟

الملك : إن لديها خاتمك .

برترام : أظن ذلك ، فى الحق لقد راقتنى ، فاستمتعت بها فى نزوة من نزوات الشباب ، لقد عرفت كيف تناضل ، فاتخذتنى صيداً ، وراحت تأبى لتزيدنى لهفة ، وتوقاً ووجداً ، لأن الحوائل حين تقوم فى طريق الرغبة تزيد الراغب شوقاً وسعيراً ، وجملة القول أنها عرفت بمكرها الذى لا حد له ، وجمالها العادى كيف تخضعنى لمشيئتها ، فظفرت منى بالخاتم ، وظفرت منها بما كان من دونى ظافراً به بسعر السوق إذا طلبه .

ديانا : سأصبر على هذا ، أنت الذى نبذت زوجاً كريمة ، كزوجك الأولى ، لا تتورع من أن تنكرنى إنكاراً ، ولكنى أرجوك – ما دمت من المروءة مجرداً ، فإنى لن أكون لك زوجة – أن تبعث فى طلب خاتمك ، لأرده إليك ، واردد على خاتمى .

برترام : ليس لدى خاتمك .

الملك : وما هو خاتمك هذا ؟ أرجوك أن تفصحى .

ديانا : إنه يا مولاى يشبه كثيراً الخاتم الذى فى إصبعك .

الملك : أتعرفين هذا الخاتم ؟ لقد كان خاتمى من عهد غير بعيد .

ديانا : وهو الذى أعطيته إليه ونحن فى الفراش .

الملك : أهذه إذن قصة كاذبة ؟ لقد ألقيت به إليه من النافذة .

ديانا : لقد قلت الحق يا مولاى .

(يدخل بارولس)

برترام : مولاى ، إننى أعترف بأنه خاتمها .

الملك : ما بالك تضطرب هكذا ، وتفزع من كل ريشة (إلى ديانا) أهذا هو الرجل الذى تحدثت عنه ؟

ديانا : أجل يا مولاى .

الملك : نبئنى يا هذا ، وإنى آمرك أن تقول الحق ، ولا تخف غضب مولاك ، لأنى منه إذا صدقت أحميك ، ماذا تعرف عنه وعن هذه المرأة الماثلة أمامنا ؟ .

بارولس : لتكن مشيئتك يا مولاى ، لقد كان سيدى رجلاً شريفاً ؟ وله حيل وألاعيب ككل السادة .

الملك : حسبك ، حسبك ، وليكن كلامك فى الموضوع ، هل أحب هذه المرأة ؟

بارولس : حقًّا يا مولاى ، لقد أحبها ، ولكن كيف ؟

الملك : كيف ؟ . قل من فضلك .

بارولس : لقد أحبها يا مولاى كما يحب كل سيد امرأة .

الملك : وكيف ذلك .

بارولس : أحبها يا مولاى ولم يحببها .

الملك : كقولنا أنت وغد ولست وغداً ، أى مغالط مماحك هذا المخلوق .

باروليس : إننى رجل فقير تحت أمر جلالتكم .

لافيه : إنه طبال بارع يا مولاى ، ولكنه خطيب لا قيمة له .

ديانا : هل تعرف أنه وعدنى بالزواج ؟

باروليس : والله إنى أعرف أكثر مما أريد أن أقول .

الملك : ولكن هلا قلت كل ما تعرف ؟

باروليس : أمرك يا مولاى . . لقد كنت وسيطاً بينهما كما قلت ، ولكنه كان يحبها ، بل كان بها مجنًّا مستهاماً ، وكان يتحدث عن الشيطان والجحيم ، وآلهة الانتقام ، وما إلى هذا مما لا أعرف شيئاً عنه ، ولكنى كنت موضع رضاهما فى تلك الأيام ، ومناط ثقتهما ، فعرفت نبأ ذهابهما إلى الفراش ، وأشياء أخرى كالوعد بالزواج ، وغيره مما تنفر منه نفسى إذا تكلمت أنا عنه ، ولهذا لا أقول ما أعرف .

الملك : لقد قلت الآن كل شىء إلا إذا كنت لا تستطيع أن تقول أنهما متزوجان ، ولكنك فى شهادتك داهية لبق ، قف جانباً ، أتقولين إن هذا الخاتم خاتمك ؟

ديانا : أجل يا مولاى .

الملك : ومن أين اشتريته ؟ أو من هو الذى أعطاك إياه ؟

ديانا : لم أعط إياه ولم أشتره .

الملك : ومن أعارك إياه ؟

ديانا : ولم يعرنيه أحد أيضاً .

الملك : أين وجدتيه إذن ؟

ديانا : لم أجده .

الملك : إذا لم يؤل إليك بإحدى هذه الوسائل ، فكيف أعطيته إياه ؟

ديانا : لم أعطه إياه .

لافيه : إن هذه المرأة قفازة سهلة يا مولاى ، تدخل فى الكف وتخرج كما تريد .

الملك : إن هذا الخاتم خاتمى ، أعطيته زوجه الأولى .

ديانا : لا أدرى هل هو خاتمك أم خاتمها .

الملك : انصرفوا بها ، لم أعد أطيقها ، اذهبوا إلى السجن بها ، وأبعدوه من هنا ، إذا لم تقولى لى من أين جاءك هذا الخاتم ، فأنت هالكة الساعة .

ديانا : لن أقول لك .

الملك : اذهبوا بها .

ديانا : سآتى بكفيلى يا مولاى .

الملك : أحسبك الآن امرأة عامة .

ديانا : (موجهة القول إلى لافيه) والله إن كنت عرفت فى حياتى رجلاً فهو أنت .

الملك : علام ظللت تلقين التهم عليه كل هذا الوقت ؟

ديانا : لأنه مذنب وليس مذنباً . إنه يعرف أننى لست عذراء ولا يتردد فى أن يقسم على ذلك . ولكنى أقسم أننى عذراء .

وهو لا يعرف . أيها الملك العظيم أننى لست بغياً . بل وحياتى إننى إما أن أكون عذراء . أو لهذا الشيخ زوجاً[١٦] .

الملك : إن كلامها يؤذى أسماعنا . اذهبوا بها إلى السجن .

ديانا : أماه العزيزة هاتى كفيلى . (تخرج الأرملة) . مهلاً يا صاحب الجلالة . فقد أرسلت فى طلب الجوهرى الذى يملك الخاتم وهو سيؤيد قولى . ويعزز بيانى . أما هذا الأمير الذى ابتذلنى كما يعرف . وإن لم يؤذنى . فإنى أبرئ ذمته . وأقيله من تهمته . إنه يعرف أنه قد دنس فراشى وفى الوقت ذاته أولد زوجه ولداً . ولئن كانت قد ماتت . فلا تزال تحس وليدها يرفس بساقه . هذا هو لغزى . إن الميتة على قيد الحياة . فانظر يا مولاى . فى معناى . وتدبر المقصد والمراد .

(تدخل هيلين والأرملة)

الملك : وى . ألا يوجد صاحب رقى وتعاويذ يعيد إلى ناظرى وظيفتهما الحقة . هل أبصر حقًا . وأرى يقيناً . .

هيلين : كلا . يا مولاى الكريم . إن تبصر إلا ظل زوج . ولا ترى منها غير الاسم .

برترام : الاسم والمعنى معاً . . مغفرة وصفحاً .

هيلين : أواه . يا مولاى الكريم . لقد وجدتك ودوداً إلى أبعد حد

---

(١٦) يبدو كلامها متناقضاً . ولكنه فى الواقع صحيح لأن برترام لا يعرف حقيقة ما جرى . وقولها «أو أكون لهذا الشيخ زوجاً» هو استحالة لأنها لن ترضى به . وهذا توكيد أنها عذراء .

حين كنت شبيهة بهذه الفتاة . ها هو ذا خاتمك . وها هو ذا كتابك ، وأنت القائل فيه «إذا استطعت يوماً أن تظفرى بهذا الخاتم من أصبعى ، وتأتينى بولد من صلبى وأضلعى . . إلخ وقد تحقق الآن ما قلت ، فهل أنت لى ، بعد أن ظفرت بك مرتين ؟ .

برترام : إذا استطاعت يا مولاى أن تشرح لى هذا الأمر جليًّا ، أوليتها الحب عزيزاً غالياً .

هيلين : إذا لم يبد هذا جليًّا ، أوكان أمراً فريًّا ، فليفصل الطلاق الممیت بينى وبينه أبديًّا . . من ذا أرى . . أمى العزيزة حية ؟

لافيه : لقد هجم الدمع فى عينى (إلى بارولس) أعرنى ياذا الطبلة منديلاً ، شكراً لك ، وانتظرونى فى دارنا ، سألهو بك ، ولكن كف عن هذه التحيات والانحناءات ، إنها ذليلة مهينة .

الملك : دعونا نعرف القصة بحذافيرها . ليستفيض الصدق الصراح من معالمها وصورها . فتفرح بها نفوسنا . وإن كنت لا تزالين زهرة صبيحة لم تقتطف (بخاطب ديانا) فاختارى زوجك وعلى مهرك . ويذهب بى حدسى إلى أنك بجهدك الصادق الشريف . حرصت على أن تكونى زوجاً . وأن تظلى عذراء ، وسنفرغ لجلاء هذا الأمر فى مختلف أدواره . كل

ما جرى كان خيراً ، فإذا كان الخير فى النهاية ، كان الماضى فى مرارته ، أحلى وأعذب فى خاتمته .

(طبول)

نشيد ختامى

أصبح الملك متسولاً ، بعد اختتام المسرحية ، وما دامت القضية قد اكتسبت ، فقد انتهى الأمر كله بسلام ، فلتعلنوا عنها رضاكم ، نجدوا عليه منا اجتهاداً فى إرضائكم ، وفى كل يوم بعد الآخر مزيد ، فليكن لنا صبركم علينا ، وليكن لكم مثل أدوارنا ، مدوا إلينا أيديكم ، وخذوا منا قلوبنا .

(يخرجون)

رقم الإيداع	١٩٩٣/٣٦٠٦
الترقيم الدولى	977-02-4043-5 ISBN

١/٩١/٤١٧
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)